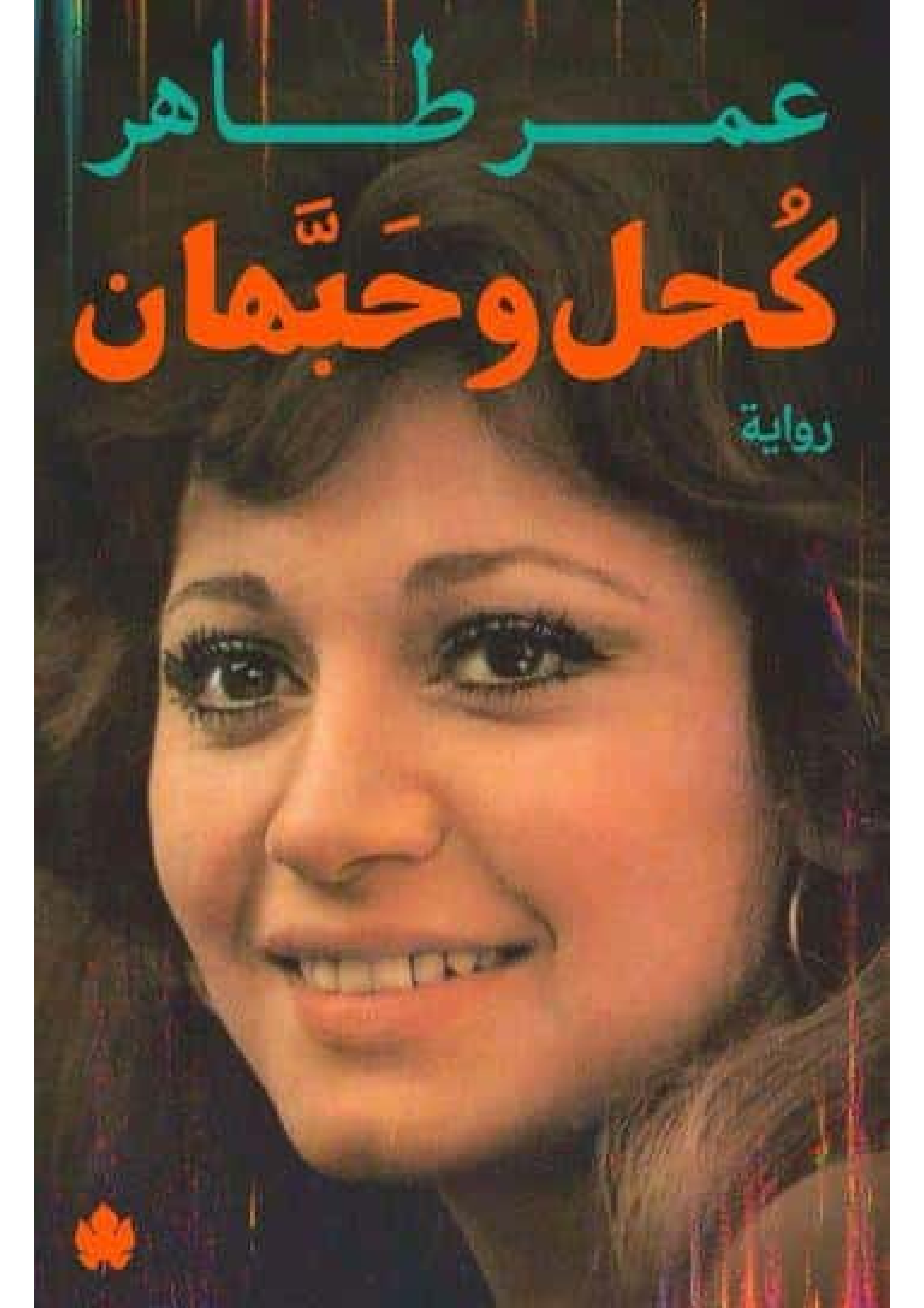

عمر طاهر
كُحل وحبَّهان
رواية

كُحل وحَبَّهان

عمر طاهر

كُحل وحَبَّهان

رواية





لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

طاهر، عمر.

كحل وحبهان: رواية / عمر طاهر - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩.

١٨٤ ص؛ ٢٠ سم.

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٩٧٢ / ٢٠١٨

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: كريم آدم

إهداء إلى

أحمد عمر محمدين

بيت العائلة (١٩٨٨)

«عيبك يا «سيسكو» أنك تشكو الجوع دائمًا. ليست هذه هي المشكلة، المشكلة أنك تشتهي ساعة الجوع شيئًا لا أحد يعرفه وأنت أولنا، نُسمِّي لك ما في بيتنا وبيوت الجيران لكن لا شيء يُعجبك، جوعك «مُقرف»».

حاول خالي أن ينتقم مني سريعًا، ويكشف عن عيب يُحبطني، ونحن نلعب معًا لعبة «الصراحة» التي يحبها ويحاول طوال الوقت أن يكتشف نفسه في عيون ابن شقيقته من خلالها.

كانت ضربة البداية موجعة. قلت له حسب ما سمعت من جدتي: «عيبك أنك «حشَّاش»».

أُحب الطعام، هذا أوضح ما ورثته عن عائلتي، بخلاف الأنف الروماني الطويل، وكلاهما غير مزعج بالنسبة لي. المزعج هو لعبة الصراحة، لأنني لا أُجيد تجميل مفرداتي،

وربما هذا ما يحبه خالي، لأنه يسمع مني كلامًا لن يخبره به أحد.

تورطت هذه المرَّة في اللعبة؛ مقابل أن أحصل على وعد صريح وقاطع منه أن يصطحبني معه إلى حفل المطرب محمد منير الذي سيقام في النادي الكائن في نهاية شارعنا. هذه هي المرَّة الأولى التي يزور فيها مدينتنا شخص معروف.

وعدني خالي ألَّا يتخلى عني، قال: «المشكلة أبوك».

دخل والدي إلى غرفتي الصغيرة في هذه اللحظة. استغل الخال الفرصة وفتح الموضوع. قال والدي إن الحفل بعد خمسة أيام، وقراره بالسماح لي بالحضور من عدمه مرتبط بسلوكي خلال هذه الفترة.

اختلى أبي بخالي في الشرفة يرتبان شيئًا ما للغد.

وقفت أمام المرآة أغني وأفكر فيما قد يجري في هذه الأيام الخمسة.

ليست لديَّ أي ثقة في نفسي، وأتوقع مني أي شيء. سأجتهد، أعرف أن الأمر لن يكون سهلًا، أنا في مواجهة تحدٍّ صعب؛ هذه أطول فترة أتحمل فيها مسؤولية تصرفاتي وما قد يترتب عليها منذ قدمت إلى هذا الكوكب قبل أربعة عشر عامًا. لكن عندما تخيلت المكافأة، لمستُ إثارة كبيرة في الفكرة، فعُدت للغناء وأنا أكز على ضروسي وأضغط

على الحروف قبل أن تخرج من فمي على طريقة نجم الحفل.

يا عذاب النفس واخدني لفين

قضيت وياك الليلة بسنين

أغنية حزينة، لكن ابتسامة واسعة أطلت فجأة في المرآة، كانت ابتسامة أمي التي تقف على باب غرفتي بالنبأ السار: «العشاء جاهز».

اليوم الأول

(١)

استيقظت مبكرًا.

يبدأ اليوم عادة بتمارين الصباح مع جدتي.

تُلقي الجدة تحية الصباح، ثم تُقيِّم القوة التي أرد بها عليها، وقد تجعلني أكرر رد التحية عدة مرَّات حتى تتأكد الجدة أنني قد أفقت، وأن روحي الشاردة أثناء النوم قد عادت إلى مكانها كاملة.

يحتاج سخان المصانع الحربية، ذو الشمعات الست، والمدخنة بطربوش أبيض، إلى فترة من ٣ إلى ٥ دقائق لتسخين المياه. محظوظ من يستيقظ فيجد من سبقه إلى إشعال الشمعات التي نغلقها مع أنبوبة البوتاجاز قبل النوم؛ يوفر عليه هذا السبق مشقة اختبار تكتكة الماء في برد يناير الصباحي.

في انتظار أن يصبح ماء الحنفية ساخنًا، سمعت أغنية تهل من راديو المطبخ. كانت أمي تُعدُّ ساندويتشات المدرسة في صمت، بينما مطرب لا أعرفه يقول جملة أعجبتني، ثبتُّها في ذاكرتي بالتكرار.

بعد أن أنهيت ارتداء ملابسي، سحبت البلوك نوت الأصفر من مخبئه في كرتونة شرائط الكاسيت. راجعت سريعًا ما كتبته خلال الفترة الماضية، ثم سجلت بالقلم الفرنساوي الأزرق جملة جديدة هبَّت من ملاعب العيش الفينو، والجبنة النستو، ومربى مشكل قها:

ونظرة واحدة تروينى
وتخليني أشبع سنتين
يا مين يوصلني لأبوها
ولّا لأخوها وأدفع مهرين
الحلوة

دخلت الأم وقد لفت الساندويتشات في صفحة الحوادث، عرفتها من الصورة التي ظُللت عينا صاحبها بشريط أسود. هناك مجرم سيُقدِّم لي إفطاري اليوم في الفسحة. أخرجت أمي من جيب الروب كيسًا بلاستيكيًّا وضعت فيه لفة الساندويتشات، كانت فرصة مناسبة لإخفاء البلوك نوت.

سألتني أمي عما أحب أن يكون موجودًا على مائدة الغداء.

سنوات طويلة وأمي تُوجّه السؤال لأبي، فيقول صادقًا: «أي حاجة».

يُغضبها الرد الذي يُفسد جزءًا كبيرًا من يومها، لكنها لم تفقد الأمل. لم يُغيِّر أبي كلامه في مرَّة، وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف هي يومًا عن المحاولة، إلى أن وجدت عندي يومًا ما بالصدفة ما يريح قلبها: إجابة.

تحديد الصنف يمنحها طمأنينة ما. يُغلق باب الحيرة، ويفتح لها باب التجويد والإبداع. يُسهِّل مهمتها، ويمنحها الحماس الكافي لعمل المطلوب أيًّا كان. يقع الشخص في غرام المشقة إذا عرف الطريق. قلت لها: «مسقعة».

(٢)

ما هي أهم غابات العالم؟

كان مدرس الجغرافيا يُسمِّيها، ثم توقَّف عند واحدة في كينيا، زارها هو شخصيًّا قبل سنوات، وقال إنه لم يرَ يومًا ما هو أجمل منها.

صمت لثوانٍ، ثم طلب من كل واحد أن يجيب عن السؤال: ما هو أجمل ما رأت عيناك؟

بدأ زملائي يجيبون عن السؤال، وانقبضت معدتي وأنا

أرى دوري يقترب. ما الذي يمكنني أن أقوله إجابةً عن هذا السؤال اللزج؟

لا أعرف ما هو أجمل ما رأته عيناي، حتى الغابات التي يتحدث عنها المدرس لا يوجد لها في كتاب «أطلس خرائط العالم»، الذي سلَّمته لنا المدرسة، سوى صورة واحدة لفتاة سمراء تقطف ثمار الكاكاو.

ما هو أجمل ما رأته عيناي؟

السؤال الصحيح هو: ماذا رأت عيناي أصلًا؟

ينادونني «سيسكو»، لكن في الحقيقة أنا «عبد الله». أعيش مع أبي ووالدته ووالدتي في مدينة بعيدة منعزلة عن العالم؛ مدينة صغيرة قليلة التفاصيل: سينما قصر الثقافة، حلواني لوكس، استوديو فينوس، بقالة ربات البيوت، كوافير الشيماء، خردوات نصحي، مكوجي العائلات، نادٍ اجتماعي به ملعب كرة قدم ترابي صغير نتسلل إليه سرقةً، وحمَّام سباحة تقام على ضفته أفراح ساذجة، مسجدان كبيران لكل واحد منهما شلة مُصلين، كنيسة كبيرة يصيبنا توجس ما كأطفال مسلمين ونحن نعبر إلى جوارها، وعلمونا أن نقرأ ساعتها الفاتحة بصوت عالٍ، فرن واحد إفرنجي، واثنان للخبز البلدي، مطعم جلال يقلي للمدينة الطعمية والبطاطس، مكتبة دار المعارف، كشك جرائد يبيع أيضًا السجائر وشرائط الكاسيت، نشتري مستلزماتنا

المهمة من صيدناوي، والكسوة من عمر أفندي، وأدوات المدرسة من رومني، نصرف التموين بالبطاقة من عند عم جرجس الذي لا يفتح محله سوى ثلاثة أيام في الشهر؛ محل تغلب عليه القذارة والإهمال ولا شيء فيه غير دفتر كبير وبراميل الزيت وأجولة السكر وأكوام من عبوات شاي شمتو، هناك صالونان للحلاقة: عم مجدي سريع وطيب لكنه عصبي، وعم عبد الملاك صاحب مهارة عالية لكنه سخيف وثرثار، حديقة جنة الأطفال ذات المراجيح الصدئة والحشائش المتآكلة، ونسناس هزيل محبوس في قفص لم نره مرة واحدة مستيقظًا، قهوة «رمَّاح» مقر خالي وأصدقائه، شرفة مقر «نادي الشبان المسلمين» لم أرَ فيها يومًا شابًّا من أي ديانة؛ فهي مقر والدي وشلة المعاشات، هناك كشك «التوبي» الموجود على ناصية الشارع الرئيسي والذي يسمح لنا صاحبه بالوقوف والتسكع إلى جواره ليلة كل خميس، مقابل مشتريات بقيمة نصف جنيه لكل واحد من الشلة. رأيت البحر مرَّتين في رحلة مع أهلي إلى الإسكندرية، لم تكن لديَّ فرصة للاستمتاع به من فرط توتر أبي في المرَّة الأولى. وفي الثانية كانت هناك مشكلة صرف صحي؛ اختلط ماء البحر بماء المجاري فمنعونا من زيارته، ثم إنه لم يكن البحر الذي أحلم به، البحر الذي يظهر في إعلان كولونيا «أولد سبايس» الذي

يذيعه التلفزيون. على أطراف المدينة أثر فرعوني، زيارته هي الرحلة المدرسية الوحيدة التي نعرفها، هو أثر يُشبه المدينة كثيرًا، فقد كان سجنًا أيام الفراعنة، قال لنا مدرس التاريخ ذات مرة: «المصريون أحفاد الفراعنة، بينما أنتم أحفاد مأمور السجن».

ما هو أجمل ما رأته عيناي؟

القدرة على الرؤية تحتاج إلى سلام، وأنا أشعر بعدم الارتياح معظم الوقت، وتؤلمني معدتي كلما اقترب مني التوتر، وهو يظهر لي دائمًا.

يوترني عدم قدرتي على تحديد ما إذا كانت جملة «إنت عقلك أكبر من سنك» هي جملة مدح أم ذم، أن يراني زملاء المدرسة مع أمي في عمر أفندي، أن أعود من البقالة ببضاعة تراها جدتي رديئة. يوترني أنني أكثر جُبنًا من القدرة على التعلّق بالكذب عندما يكون هو طوق النجاة. الامتحانات لا تقلقني لكنني أذبل في انتظار النتيجة.

يوترني الشخص الذي لا يستقر كفه في كفك عند السلام ولكن يستقر عند ساعدك، والشخص الذي يظل ممسكًا بكفك بعد السلام حتى ينتهي من حكاياته، والشخص الذي يربي ظُفر إصبعه الصغير. يوترني ضغط مراقبة اللبن وهو على البوتاجاز ورفعه قبل أن يغلي؛ مهمة علمتني معنى الغدر مبكرًا. يوترني ألَّا أستطيع أن أحصل

على حقي كاملًا، أن يفهم أحدهم كلامي خطأ، الوشوشة الجانبية، التأخير.

هناك المشاوير التي يرسلني إليها الأب، أخاف ألَّا أنقل الرسالة مضبوطة، أو أن أجيب عن أي أسئلة فأفشي أسرارًا، أو أن أحمل نقودًا وتقع من جيبي، قصة حياتي.

يوترني أن أثير الإعجاب بالصدفة؛ معجزة ما قدَّمتها ومن المستحيل أن أكررها. أرتبك عند وجود أي شخص غيري داخل غرفتي الصغيرة. هاجس أن عدد مجلة «الشباب» الشهري لم ينفد ولكن «القلش» يخبئه للحبايب. رائحة كولونيا الليمون تقول إن هناك حقنة في الطريق. يوترني ارتفاع درجة حرارتي لأنه يعني احتقانًا في اللوزتين، بما يفيد وقوعي ضحية لـ«طعام المرضى» لفترة. أستمتع بتأنيب الضمير لكن يوترني أنني أعيد أخطائي بالإتقان نفسه.

الصوت العالي، صوري الشخصية، الأغاني الرديئة، جدول المذاكرة، التصاق بواقي النوجا والشوكولاتة الروكيت في الضروس. يوترني أنني لا أُجيد فتح مواضيع مع أحد، هذا الغموض الذي يلف أبي عندما يفسر أي شيء بأنني سأفهم عندما أُصبح أبًا. السؤال عما أريد أن أصيره عندما أكبر يقلقني، لم يحدث ولو مرَّة واحدة أن رأيت على وجه صاحب السؤال أي شيء غير الإحباط.

الغرور، الذباب، الحر، وعندما أقول إنني عيان، فيسألني أبي «عيان ليه؟».

توترني قصاري الزَّرع البلاستيكية عندما يتراكم فوقها التراب، وطبق الفاكهة البلاستيكي فوق موائد الأقارب، والمتحذلقون الذين يرتدون الساعة في معصم اليد اليمنى، والذين يرتدون خاتمًا ذهبيًّا في الإصبع الصغير، والذين يطالبونك بفتح يدك ثم يصبون بداخلها من زجاجات صغيرة عطورًا لزجة ذات رائحة شمعية، والذين ينادونني بـ«بسسسست».

يوترني اللعب في حدود رقعة صماء مثل رقعة «بنك الحظ» و«السلم والثعبان»؛ اللعب هو الخيال، وهذه ملاعب محكوم فيها على الخيال بالإعدام. يوترني المشغولون بجمع الطوابع، وفريق الإلقاء في المدرسة، وفشلي الدائم في حل مكعب الألوان «روبيك»، والمقياس الذي فرضه علينا أهالينا لاختيار الأصدقاء أن نسأل كل واحد: «أبوك بيشتغل إيه»، واضطراري لاختراع مهن مُرضية لآباء أصدقائي الذين أُحبهم.

ما هو أجمل ما رأته عيناي؟

سؤال سخيف.

أقف كثيرًا أمام مرآة طويلة في غرفتي، أرفع صوت الكاسيت، وأدقق النظر في الشخص الماثل أمامي،

وأحاول أن أستكشف من هو، وأن أجد دليلًا على أن الشخص الماثل في المرآة أمامي هو أنا. هذا الشخص يشغلني كثيرًا، وأتمنى له دومًا السلامة والنجاة، ولا ترى عيناي طوال الوقت شيئًا غيره.

أنقذني عم ناشد من الإجابة عن السؤال، كان يهز الجرس الضخم معلنًا انتهاء الحصة. نظرت من الشباك فرأيته ممسكًا بحبل الجرس من فوق دراجته. كانت الحصة الأخيرة.

(٣)

أُبطئ السير أمام بيت سحر، أتجاوزه ثم أعود فأمر من أمامه مرَّة تلو الأخرى، ولا حس أو خبر.

لا أعرف أين اختفت هذه السمراء النحيلة ذات الشعر القصير منذ ثلاثة أيام!

(٤)

شقتنا في الدور الرابع، ولا أسانسير، لعبتي المفضلة هي التمهل أثناء الصعود أمام شباك مطبخ كل شقة،

والذي يطل على شباك المنور العريض في كل طابق، محاولًا استنتاج قائمة طعام الغداء التي يُعدُّها كل بيت. أعتبرها فواتح شهية، تُمهِّد الطريق حتى سفرة الغداء التي أعدتها أمي، أو مصدر إلهام يساعدني في تحديد ما سأطلب من أمي إعداده في الغد. ثم أصبحت العادة محض تلصص، ثم صارت جزءًا من يومي أترقبه بشغف؛ التجسس على وجبات الآخرين ممتع. لاحظت بمرور الوقت أنني أصبحت أستهل حواري مع أي شخص في المساء بـ«اتغديت إيه النهارده؟»، ولم أجد يومًا استهلالًا للكلام يُقرِّب المسافات أكثر من هذا السؤال.

البداية دومًا كانت في الطابق الأول، عند شباك مطبخ طنط مديحة، البورسعيدية الرقيقة خفيفة الدم التي لم تتخلَّ عن لهجتها، حتى بعد سنوات من الاستقرار في المدينة زوجة لضابط شرطة. كانت روائحها دائمًا هي الأشهى، وفي نهاية رحلة السلم كانت تحصد المركز الأول معظم الوقت. إلى أن مررت بها اليوم، ولم تكن هناك أي روائح تنبعث من شقتها.

في الطابق الثاني كانت طنط ألحان، ربة أُسرة مدمنة أسماك. ومن شباكها كانت تتصاعد رائحة الجِزَل وهي تطقطق في طاسة التحمير.

في الطابق الثالث كانت الحاجة أم سمير قصة منفردة.

تمتلك أم سمير أسرار قائمة طعام المدينة الأصلي: فخار اللحم بمرق البصل المهروس، أو البامية البيضاء التي تنصهر مع الثوم والسمن البلدي في فخارة تمتلئ بقطع من لحم الرقبة. اليوم كانت تنبعث من شباكها رائحة فريك ينضج على مهل في الفرن، وقد اختلط سكر رائحته ببخار سلق قطع اللحم الضاني الكثيف.

تحركت معدتي، وبدأت تستعد لصينية المسقعة. الباذنجان مخلوق عجيب، رائع في كل أحواله، حتى رائحة قليه مميزة عن أي رائحة قلي أخرى؛ رائحة ودودة لا تخلو من حلاوة ما، يترك في الفم سُكرًا بدون «تجزيع». يحلو لي أثناء عمل المسقعة أن أسرق من المطبخ بعض الشرائح المقلية قبل وضعها في التسبيكة، لألقي بها داخل نصف رغيف بلدي ساخن مع نطرة ملح وكمون، ثم أختبئ من أمي في أي مكان قصي أهدهد روحي بـ«النأنأة».

المسقعة بديعة في كل أحوالها، مع الخبز، أو مع أرز «حبة وحبة»، خلطة ألوان ساحرة، النظر إليها يرقق القلب، أخضر شرائح الفلفل، مع أحمر شرائح الطماطم، مع درجات البُني المختلفة في الباذنجان، مع رمادية اللحم المفروم، وتتناثر هنا وهناك بعض حبَّات الزبيب بلونها الذهبي، وأحيانًا حبَّات اللوز بأبيضها الخشبي، وينام فوق

هذه اللوحة قرن فلفل حامي طويل بعرض الطاجن منحته نار الفرن درجة ما من الأسود اللامع.

سمعت خالي يقولها يومًا، بينما أمي تضع الطاجن أمامه: «إذا نظر إليها سرَّته». حتى عندما تكون «مسقعة كدابة»؛ لا لحم مفروم فيها، تظل محتفظة بجاذبيتها. يبدو تقطيعها إلى شرائح داخل الطاجن قبل توزيعها أشبه بتقطيع تورتة. قضمها يُذكِّرني بالفعل بقضم قطعة جاتوه. هي الحلوى الوحيدة التي تزداد تألقًا إذا ما صحبتها حبَّات الليمون المخلل التي تنزف ماء اختلط بخيوط العصفر الملونة. أحبها دائمًا مع قطعة بوفتيك.

سمعت أبي يحكي أن العرب كانوا يكرهون الباذنجان. حاول أحدهم أن يقنع أعرابيًّا بحلاوة طعمه إذا حُشي باللحم، فقال الأعرابي: «والله ولو حُشي بالتقوى». قلت لأبي هذا أعرابي أحمق لم يجرب المسقعة «لما تبقى بايتة». طبختها لنا جدتي في مرَّة، وأضافت لمسة ساحرة؛ مكعبات بطاطس صغيرة متناثرة بين قطع الباذنجان، صلابة المكعبات المتوحدة مع القوام الرخو للأكلة جعلها أشبه بالحوار مع شخص كبير وناضج، لكنه في الوقت نفسه «ابن نكتة».

تمنحني المسقعة المتعة نفسها التي يُقدِّمها الفريق الذي أشجعه عندما يكون رائق المزاج، بهجة موافقة

الأب بالسماح لك أن «تبات عند أقارب تحبهم»، الأغاني الشعبية التي يحبها خالي، متعة حوارات الكرة التي تندلع فجأة مع ناس تقابلهم لأول مرة، لمة النميمة والضحك في أحد الأركان عقب نهاية إحدى الجنازات العائلية وانصراف المعزين، بهجة شرب قمر الدِّين على عطش شديد.

كنت أُفكر وأُسلي نفسي بترتيب خطوات التهامها (مع قليل من الأرز في البداية، ثم مع الخبز)، ولكن عندما اقتربت من شقتنا لم يكن هناك أثر لأي روائح.

فتحت أمي الباب، فوجدت طنط مديحة عندنا في غرفة المعيشة. كان يبدو عليها أنها قد انتهت للتوِّ من وصلة بكاء عنيفة. طلبت مني أمي أن أدخل إلى غرفتي. سألتها عن الغداء، فقالت إنها لم يكن لديها وقت لعمل شيء لأن طنط مديحة موجودة عندنا منذ الظهيرة. طلبت مني أن آكل أي شيء على وعد بعمل صينية بسبوسة في المساء.

عقب ساندويتش سريع دخلت إلى فراشي. كانت جدتي قد انعزلت في غرفتي أسفل شباكها، وكان المكان الوحيد في الشقة الذي تزوره الشمس في هذا الوقت. كانت مشغولة بالتعامل بأدوات الحياكة مع روبها القطيفة الأزرق القديم الذي أرسلتني لإحضاره من بيتها قبل

يومين. قلت لها هاتي لك واحد جديد، فطلبت مني أن «اتخمد نام».

عندما تقلَّبت في فراشي بعد غفوة، لمحت طنط مديحة تقف أمام مرآة غرفتي تضع أحمر الشفاه. دخلت أمي فأعادت لها طنط مديحة إصبع الروج ووقفت مترددة. فقالت لها أمي: «يلَّا بلاش لكاعة». أنهت جدتي صلاتها ثم نظرت إليَّ قائلة: «اغسل وشك ورُوح سلِّم».

في صالون منزلنا كان زوج طنط مديحة يجلس مرتديًا البلوفر الكاكي الذي تُطل من فوقه ثلاث نجمات ذهبية، وإلى يمينه أبي الذي توقَّف عن الكلام ما إن دخلت عليهما. سلَّمت ثم طلب مني الانصراف. لكن الفضول كاد أن يقتلني. فهمت مما التقطته من الحوار أن الزوج يبدو نادمًا. كانت طنط مديحة تشكو العصبية والتجريح والصوت العالي «في الفاضية والمليانة»، وضربت مثلًا بواقعة أخيرة ارتفع فيها صوت زوجها معنفًا: كانت قد طهت «بطة»، وقطَّعتها قبل أن تضعها على السفرة، فانفجر الزوج غضبًا لأنه نبَّه عليها ألف مرَّة أن البطة يجب أن توضع على السفرة كاملة، ثم يقوم هو بتقطيعها. فضحك الجميع، ثم سمعت الزوج يُبدي اعتذاره أكثر من مرَّة، وأمي تضغط على طنط مديحة للقبول، حتى رضيت، فطلب الأب منهما أن «كفاية مياصة، وعُودا إلى بيتكما»،

لكن أمي قالت: «لن يحدث هذا قبل تناول البسبوسة».

رأيت أمي تضع صينية البسبوسة والأطباق. قام أبي ليصلي، وطلبت مني الأم أن «تعالى خد صينية الشاي». بينما أضع الشاي كانت طنط مديحة تضع قطعة من البسبوسة في طبق وتُقدِّمه إلى زوجها وهي تسأله بلهفة جعلتني أقع في غرامها: «اتغديت؟».

(٥)

رتَّبت حقيبة المدرسة حسب جدول حصص الغد. أنهيت تجليد كراسة اللغة الإنجليزية بجلاد أزرق، واشتريت كراسة وجه ووجه للأحياء. قمت بتسطير كشكول اللغة العربية، واطمأننت على أدواتي في المقلمة المعدنية المرسوم عليها خريطة العالم، ولكن سحبت منها القلم السوستة الذي يكتب بأربعة ألوان خوفًا من أن يضيع مني، ثم أحضرت علبة الورنيش «الكرة» وفرشاة وقطعة قماش، وقمت بتلميع حذائي بينما أستمع إلى شريط علي الحجار الذي استعرته من خالي. سحبتني الأغنيات واحدة تلو الأخرى وأنا نصف منتبه، إلى أن قال الجملة التي حركتني:

إن قلتي وداع.. أنقسم اتنين

قمت إلى البلوك نوت الأصفر وسجَّلت الجملة.

رجعت إلى صفحة البلوك النوت الأولى، وجلست أتأمل وردة مرسومة بعناية وإلى جوارها كلمة واحدة مكتوبة بخط رقيق بلون أحمر: «سحر»، وقد رُسم حرف «الحاء» على شكل قلب.

أين ذهبت تلك التي إن قالت وداعًا أنقسم اتنين؟

سمعت باب الشقة ينفتح، وجلبة عارمة خارج الغرفة. خرجت فوجدت خالي ومعه عم سيد الذي يساعد في تلبية احتياجات المنزل وتنظيفه، يحملان كرتونة ضخمة لمحت فوقها كلمة «Toshiba». قال عم سيد فرحًا: «مبروك يا سيسكو». في نفس اللحظة كانت جدتي تدفعني وتدخل الغرفة وتسحب من أسفل الفراش كيسًا بلاستيكيًا.

نظرت إليَّ أمي، وهزت رأسها مبتسمة: «التلفزيون الملون».

كنت قد فقدت الأمل، أيام طويلة وأنا أزن طلبًا له، لسبب لا يعرفه أحد غيري: كنت أسترجع مع ميشيل زميلي فيلم الأمس المعروض في «نادي السينما»، وعندما جاءت سيرة البطلة تغزَّل ميشيل في عينيها الزرقاوين. قلت له بتلقائية شديدة إن تلفزيوننا الأبيض والأسود لم يُظهر هذه المعجزة، فأبدى امتعاضه من كوننا أُسرة ليس لديها

تلفزيون ملون. صرت أتحاشى ميشيل بعدها. وكلما رأيته يميل على أحد يُحدِّثه ثم يضحكان، تتقلَّص معدتي. ارتقى ميشيل درجة وصار ينظر إليَّ من أعلى، ولم يكن أمامي لإنزاله عنها سوى خيارين: أن أحرق منزلهم بالتلفزيون الملون الذي يمتلكونه، أو أن نشتري واحدًا.

طرقت باب الأم كثيرًا لتساعدني في هذه المهمة، لكنها لم تكن متعاونة على الإطلاق. كانت تستطيع بسحر الزَّن أن تنجز المهمة، فعلتها كثيرًا قبل ذلك: ألحَّت أمي في شراء راديو للمطبخ، على أن يظل راديو غرفة النوم ثابتًا في مكانه؛ فكثرة تنقُّله من فيشة إلى أخرى قد تُفسده. واستجاب أبي، فاشترى لها واحدًا ناشيونال بجراب جلدي بُني وحزام قصير علَّقته أمي منه على حائط المطبخ. ألحَّت لأنها تعشق الراديو. كنت أحب أن أتأملها وهي مندمجة مع المسلسل الإذاعي كل يوم في الخامسة عصرًا. يتسلل ضوء شمس العصاري كخيوط متفرقة عبر سلك شباك الصالة، فيقع على وجهها وهي جالسة على الكنبة الأسيوطي، والراديو إلى جوارها، تدهن ساقيها وكعبَي قدميها بزيت جوز الهند، ثم تُغلق عينيها وتستمع إلى المسلسل وهي تدهن كفيها بما تبقَّى فيهما.

تأقلمت مع الوضع، وكسرت سم ميشيل بأن ألَّفت له

قصة عن شرائنا لجهاز فيديو يعمل على تلفزيوننا القديم. وإمعانًا في التأثير حكيت له قصة فيلم «سلام يا صاحبي» الذي سهرنا معه. حكيت له القصة نقلًا عن خالي الذي شاهده في سينما «قصر الثقافة» قبل يومين.

كانت الوجوه كلها مصوَّبة باتجاهي، تنتظر رد فعلي. لم يمر في بالي سوى جملة واحدة: «وماذا سنفعل بالتلفزيون القديم؟».

أحبط تعليقي أبي، وأبدى استنكاره من أن يكون هذا هو الشكر الذي يستحقه على تحقيق واحدة من رغباتي. وقالت أمي: «سنضعه فوق الدولاب»، وقال خالي: «عيِّل غلس»، وقلت أنا: «لماذا لا نعطيه هدية لعم سيد؟»، وقال عم سيد مندهشًا: «أنا؟!».

يتفانى عم سيد في خدمة هذه الأسرة. كانت بدايته مع جدتي التي ربَّته صغيرًا، ثم كبرت وأنا أراه يصعد السلم إلى شقتنا خمس مرَّات في اليوم محمَّلًا بالطلبات. ابتسمت جدتي قائلة إن كلمتي «والله ما هي راجعة». وظل أبي ينتظر كلمة الشكر، لكن شيئًا ما أعجزني عنها.

كان الأب والخال يضبطان الألوان، ووقعا في متاهة «لأ فتَّح.. لأ غمَّق»، خليط من عمى الألوان والجهل بحقيقتها، ثم استقرا على درجة لا أعرف كيف رضيا عنها؛ كان وجه المذيعة أحمر قرمزيًا لامعًا بفجاجة مع شفاه

خضراء، وكانت نشرة الأخبار في نهايتها. طلبت الجدة إغلاق الجهاز، ثم أخرجت من الكيس البلاستيكي الروب القطيفة الأزرق القديم بعد أن حوَّلته إلى كسوة للجهاز. غطَّته بها فازداد وقارًا. قالت الأم: «سأصنع بيتزا على سبيل الاحتفال لنتناولها مع فيلم السهرة». ثم سحبني خالي من كتفي باتجاه الشرفة، وبينما كان يحدثني عن قلة ذوقي مع والدي وأهمية تصحيح الوضع من أجل الحفل، كنت أراقب بطرف عيني عم سيد وهو ينحني باتجاه التلفزيون القديم فرحًا يملأه الابتسام. رفعه على كتفه واعتدل، ثم أمسك يد جدتي وقبَّلها، وألقى السلام منصرفًا، ولاحظت أن أبي لم يرد السلام.

(٦)

كانت المطربة في راديو المطبخ تقول ما أعجبني، ورأيته يستحق التسجيل في البلوك نوت:

يمكن على باله حبيبي
يمكن عن باله أغيب
لكن والله يا حبيبي
عن بالي ما بتغيب

كانت أمي تغني معها، بينما توزِّع فوق عجينةٍ قطع البسطرمة والطماطم، وتغطي أخرى بالتونة والزيتون.

قررت أمي أن تُسعدنا.

في هذا البيت التربية مسؤولية الأب، والحياة مسؤولية أمي.

يدير الأب منظومة العقاب، وتحترف أمي المكافأة.

تفهم أمي كيف تخلق الفرحة في قلب ابنها الذي لا يفهمه أحد، تروض شروده وهياج روحه بلمسات بسيطة: السحلب المغلي الذي تغرق فيه المكسرات، طبق الجيلي الذي تتراقص بداخله قطع الموز، المهلبية التي يغرق سطحها في جوز الهند، صينية البطاطا المشوية في الفرن مهروسة بالشوكولاتة، كيكة البرتقال التي تختبئ بداخلها حبَّات الزبيب.

سجَّلت كلمات المطربة في البلوك نوت الأصفر، وفي قلبي غصة الشعور بأنني قد خسرت الجولة الأولى في التحدي مع أبي.

بينما أُعيد البلوك نوت إلى مكانه، خرجت في يدي علبة شريط أغنيات أجنبية، كنت قد خبَّأت بداخلها ورقة مطوية بعناية؛ هي في الأصل صفحة من مجلة قديمة بها صورة لممثلة لا أعرفها، اسمها «روزيتا»، تنام مرتدية مايوهًا من قطعتين فوق صخرة أمام البحر، وكان يبدو على

وجهها الانزعاج، لأن شخصًا فاسدًا قد فك مشبك القطعة العلوية فاحتضنت نهديها بدلال. ومكتوب مانشيت: «لم أصل إلى النجاح بالإغراء»، وهذا كلام قد يكون صحيحًا وربما لا، ولكن كُلِّي ثقة أن الإغراء قد وصل بكِ بعد سنوات يا «روزيتا» إلى هذه الغرفة المنبوذة في مدينة بعيدة عن الأنظار.

الصورة التي نتبادل الاستحواذ عليها أنا وبكر؛ زميلي في الفصل، كانت أقوى من قدرتي على المقاومة: جسد مصقول، خصر في حجم رغيف بلدي، ينتهي بمؤخرة عالية ومتراخية، ثم ساق تامة الاستدارة، بتتبعها يصل الواحد في نهايتها إلى قدم صغيرة تثير أصابعها القصيرة جنوني.

عندما رأيتها أول مرَّة لم أقل غير «سبحان الله»؛ فهي معجزة مبهرة وإن كانت مخيفة في الوقت نفسه، أخاف أن تنفرد بي في غرفة مغلقة، على الرغم من أنني كثيرًا ما انفردت بها في خيالي.

جعلتني «روزيتا» أتعرَّف على جانب آخر من النساء. علَّمتني خصلة أقلعت عنها بمعجزة؛ كنت أتخيَّل أي واحدة تصادفني نائمة فوق هذه الصخرة: المدرسات، القريبات، طنط مديحة، حتى مذيعات الأخبار. لم أعفِ واحدة من هذه المهمة سوى أمي، ثم بدأت فجأة أشعر بالغيرة على الأم، ولم يمر هذا الشعور ببالي من قبل.

قلت لبكر في مرَّة إنها فتاة أحلامي، قال لي: «دي تشفطك». أعجبتني الفكرة، وبعد يومين حلمت بها تلتهمني. كان الأمر مبهرًا، وذا درجة حرارة عالية. صرت بعدها أستعيدها في خيالي على هذه الصورة؛ حسناء فاتنة تبتلعني. وظل هذا هو مصدر الإثارة الوحيد في حياتي لفترة طويلة، إلى أن صادفت سحر، فنسيت أمر الصورة. وحتى عندما وقعت بين يديَّ الآن لم يكن الشعور بالإثارة على حاله القديم. طويت الورقة سريعًا، وأعدتها إلى مكانها وأنا أقاوم بشدة محاولة تخيُّل سحر نائمة فوق صخرة «روزيتا» الملعونة.

القاهرة (٢٠٠٨)

أجلس في مكتبي بالشركة أتأمل فنجان القهوة الصباحي، وأُفكر في الفتور الذي أصاب علاقتي بالبُن مؤخرًا، وجعل تأثيره معظم الوقت أقل من المتوقَّع.

القهوة هي مزاج الأشخاص الذين يحفظون للكوكب توازنه.

سنوات طويلة مرت عليَّ كمُبشر بالفكرة، وواحد من شيوخ هذه الطريقة في التعامل مع مشروبات المزاج الحسن.

ثم حدث ما لم أفهمه؛ صارت القهوة إدمانًا.

مأساة الإدمان أن الجرعات الأولى تجلب قدرًا من الانتعاش والنشوة، وبمرور الوقت يضيع هذا القدر، ثم يصبح على المدمن أن يسعى خلف جرعات أكبر طلبًا له.

بعد فترة تضيع النشوة تمامًا، ويظل المخدر ماثلًا

في حياة المدمن، لا يقدم المتعة، ولكن يتم استخدامه كمهدئ يعوض قلق الروح التي لم تعد تتحصل على هذه المتعة. يتحول المخدر من رفاهية منعشة إلى علاج مُسكن.

أصحو في ارتباك عظيم لا ينتهي إلا بالوقفة أمام كنكة البُن على النار؛ مدمن في انتظار الجرعة، فقط ليهدأ.

وقعت في غرام القهوة؛ لأنها مشروب فردي، يليق برغبة في التوحُّد والانعزال قليلًا مع انتشاء بريء. يخطفها الواحد على الواقف في محطات البنزين، يرتب أفكاره على إيقاع رائحتها. أو ينعزل في ركن قصي من البيت مع السبرتاية محاولًا اكتشاف الحكمة في أحداث اليوم. وإن كان ثمة شركاء لا بد منهم فهم محدودون، القهوة مشروب سعته شخصان على أقصى تقدير، المساحة الأكبر في حوارهما للصمت. بهجة القهوة تسبقها، تتصاعد السعادة تدريجيًّا مع بداية اتخاذ قرار الحصول على فنجان، تتراكم وتزهو مع التفاصيل: المقادير، والانتظار، وصوت ماكينة الإسبرسو، أو حركة وش القهوة في الكنكة إلى أعلى ببطء كله إغواء. وتبلغ السعادة حدها الأقصى مع أول رشفة، بينما الحواس كلها تشتبك: شم الرائحة، ولمس كوب ساخن ذي لسعة محببة، مع استطعام حرقة التحويجة.

بالوقت والتكرار فتر الغرام، فبهت التأثير، ثم أصبح الحصول على فنجان القهوة الذي يرضيني أمرًا يعتمد على الصدفة؛ شيء قدري للغاية لا منطق له ولا قواعد، تمامًا مثل الحب.

قطع تأملاتي وصول الهدية الصباحية.

شخص مجهول يرسل لي منذ عدة أيام على مكتبي في الشركة علبةً من أحد المحلات الحديثة في العاصمة التي تُقدِّم مخبوزات بالقرفة.

كنت أتذوقها لأول مرَّة وأعجبتني، ولكن عندما تكرر الأمر بدأ التوتر يتسرب.

موظف الأمن يقول: «ولد صغير يرتدي كابًا هو الذي كان يحمل العلبة لك في المرَّتين السابقتين ويتركها معي».

اتفقنا أن يحتجزه في المرَّة القادمة ويستدعيني.

نزلت من مكتبي ذات ظهيرة، وكان الولد يجلس في غرفة الأمن مذعورًا. أشفقت عليه، وطلبت له ليمونًا بالنعناع، وطلبت معرفة اسم من يُرسل لي هذه المخبوزات.

الولد يعمل دليفري في أحد فروع سوبر ماركت «ذكرى» الشهير في المعادي، ويتلقَّى الأوردر من زبونة المحل، الآنسة صافية.

صافية زميلتي؟

طلبت من عامل التوصيل ألَّا يخبرها أنني قد عرفت الأمر، ثم ظللت أراقبها من بعيد، وأفكر فيما يجب أن أفعله.

تجتمع في صافية؛ زميلتي الجديدة في الشركة، كل الأشياء التي أنهيت بسببها علاقات عاطفية سابقة.

ممتلئة قليلًا، ضحكتها جريئة، تتباسط مع الجميع، معبأة بـ«اللماضة»، عندها ردٌّ على كل شيء، لا تؤمن بالمسلَّمات، أصابع قدميها طويلة، تتثاءب بصوت عالٍ، وتنهي التثاؤب بزفير مستفز (هووو خخخخخخخت)، لها صور ساذجة في استاد القاهرة وقد دهنت وجنتيها بعلم مصر، تُدخِّن، لا تهتم كثيرًا بمظهرها، لا ترتدي الفساتين، ذوقها في الأحذية الرياضية التي تتمسك بها يميل إلى الرجالي، مكتبها نموذج للفوضى. لكنها ذكية، وسريعة البديهة، ولم يحدث أن تناقشنا إلا وأغرقتني في الضحك، وكنت أشم فيها دائمًا رائحة قدومها من بيت لم أشعر قَطُّ أنه غريب عن بيوتنا.

طرقت باب مكتبها. تبادلنا الابتسام وتحية الصباح، ثم توقف الكلام في حلقي.

اعتدلت في جلستها قائلة: «أنا عارفة إنك عرفت».

سألتها: «ولماذا توقفتِ عن إرسال المخبوزات؟».

قالت: «طِلعلك كرش، وخشيت أن أكون السبب».

ضحكت، فضحكت. وكان ممكنًا أن ينتهي الموضوع عند هذه النقطة.

قلت لها: «عندي قصة مع القرفة لا بد أن أحكيها لكِ».

ثم استأذنتها في أن أتصل بها، فلم تبدِ حماسًا كبيرًا، ولم ترفض الفكرة.

التقطتُ تلفونها المحمول من فوق المكتب، اتصلت بنفسي لأُسجِّل رقمها.

قلت لها: «لن أُزعجكِ، سأنتظر تلفونكِ عندما تسمح ظروفكِ»، ثم بادرت أنا بالاتصال مع نهاية اليوم.

كان أول سؤال أوجِّهه إليها عن السر وراء فكرة المخبوزات.

ذكرتني باليوم الذي كنا نجلس فيه جماعة في استراحة الشركة، وإجابتي عندما سألني أحدهم عن مواصفات فتاة أحلامي، فقلت بدون تفكير: «واحدة تفتح نِفسي».

قالت: «تعاطفت إنسانيًّا مع «سدة نفسك»، وفكرت في طريقة للمساعدة بدون أن أبدو متطفلة، لأنك كنت مهمومًا وصادقًا وأنت تتكلم عن فقدان الشهية، ولم تنجح لمساتك الكوميدية في تجميل المشكلة».

كان كلامها مضبوطًا.

«نِفسي اتسدت». أنا الذي لم أترك مكانًا في العاصمة يُقدِّم طعامًا دون زيارة، من ملاهي الكشري

إلى أقبية السوشي. معظم شيفات مطابخ المدينة أصبحوا يعرفونني؛ لأنني كنت أصر بعد انتهاء الطعام على شكر كل من لمست مهارته قلبي، وأصبح عندي واسطة في معظم المطاعم تمكنني أنا ومن معي من عبور الدور في «الويتنج ليست». تقاسمت أنا وصاحب عربة الكبدة الذي صار صديقي سر إضافة جوزة الطيب إلى «بطن النار» المكونة من الثوم والكسبرة والتي تسبق الكبدة إلى التحمير. وفي عدة مطاعم كنت عضو لجنة تقييم الأصناف الجديدة قبل إضافتها إلى المنيو. من مَهرة الفطير البلدي، إلى كرم ضيافة خيام المندي، ومن أرغفة اللحم الأميري المحمر على صوت سمكرة أبواب السيارات في شوارع المطرية، إلى موسيقى «موتسارت» المصاحبة لقطعة ستيك مشوية ويل دون مع الزبد والثوم في الزمالك، من مطاعم تُقدِّم وجباتها وهي مشغولة فقط بـ«أكل العيش»، إلى مطاعم مشغولة بـ«سعادة الإنسانية»، من مكان «الأكلة» فيه على هامش «الخروجة»، إلى مكان «الأكلة» فيه هيَّ «الخروجة» نفسها، لم أتوقف يومًا.

فسدت شهيتي أنا الذي كنت أرى في الطعام ما بعد الطعام. تبطين ساندويتش الحلاوة الطحينية بالجبنة البراميلي يقول إن لمس القلوب قاعدته الأولى كسر

المألوف. لا يوجد ما هو أشهى من طعام استقر لفترة داخل فخارة في النار، تمامًا كالتجارب التي تسوي جاذبية الواحد على مهل. الحلويات تقول إن ما يجعل السعادة جذابة كونها استثناءً. الفاكهة التي أعود بها من السوق لا ضامن لها، وهي غدَّارة مثل اختيارات الواحد العاطفية. الخبز يقول إنه لا بد من شريك؛ خُلقت الحياة من أجل واحد، ثم اقتضت الحكمة أنه من الأفضل أن تتم قسمتها على اثنين. يكبر الواحد فيهرب من أهله، مثلما يسقط اللحم الناضج عن عظم مفصل الفخذ الذي لولاه ما تشكَّل وتماسك. يتوقف طعم الطبخة على مذاق الشوربة، مثلما يتوقف أثر العطر على رائحة الجلد نفسه. الطريقة التي يظل الفطاطري يفرد بها عجينته ويلمها هي نفسها الطريقة التي يتعامل بها الواحد مع هلاوسه وإحباطاته في الساعة التي تسبق النوم. الصلصة شخص لا يعيش لنفسه، لكن للآخرين. حشو البيتزا فقط هو الذي يصنع الفروق، لكن جرِّب أن تحبس بشرًا مختلفين في خوف مشترك أو في غناء جماعي، سيسقط الحشو ساعتها، وستكتشف أن العجينة واحدة.

فتر حماسي عندما بدأ ينفرط عقد صحبة الطعام التي شكَّلتها بعناية.

تُوفِّي واحد، وهج اثنان من البلد إلى الخارج، وتزوج الباقون وبدأوا يخونونني مع زوجاتهم في الأماكن التي اكتشفناها معًا.

لا شيء أسوأ من أن يتناول الشخص الطعام بمفرده. الحكمة الشعبية التي تحذر مَن يأكل منفردًا مِن تعثر اللقيمات في حلقه تحاول أن تلفت النظر إلى جفاف ريق المتوحدين، بينما شخص تتحدث إليه وتشاكسه على الطعام سيجعل حلقك رطبًا، وسيجعل ريقك يجري.

ثمرة اليوسفي التي تقشرها تزداد حلاوتها بالفصوص الثلاثة التي تقتطعها وتمررها لشخص تحبه. الأكل مع الآخرين يرفع مستوى الاحتفال.

صرت أخاف أن أقترب من عربة الكبدة خوفًا من وقفة منزوية بائسة في مكان قاعدته الأولى هي «الشلة». أما الأكل منفردًا في المطاعم المكيفة، فيشعرني بأنني أجلس بملابسي الداخلية. تخجلني الوحدة وتسد نِفسي.

عرفت سكة الدليفري، إلى أن فتحت ثلاجة الشقة في يوم فوجدتها تمتلئ بالفضلات: بواقي ساندويتشات جاهزة، وأقماع بطاطس، وعلب طرشي مفتوحة، وقد تيبس كل شيء، وثمة فطر منتشر على أرغفة الساندويتشات. هنا فقدت شهيتي تمامًا، وصرت أتناول ما يجعلني على

قيد الحياة. ثم حدث أن ما أصاب شهوة الطعام أصاب بقية شهوات الحياة.

كنت أبحث عن مفتاح جديد لاستعادة شهيتي، وبالتالي استعادة الحياة، قلت ربما يكون هذا الشيء شخصًا!

شخصٌ تثير شهيتك الطريقة التي يستطعم بها ما في يده، يضع في فمك قطعة يعرف أنها ستدهشك، تشعر معه بلذة الكلام عما يمكن أن نأكله اليوم، يتفهم جيدًا نزوات «عارف أنا نِفسي في إيه دلوقتِ»، فتلمح في عينيه شوقًا للمفاجأة. شخصٌ تشاركه بهجة البشاميل، وفتنة الطواجن، ومغامرة استكشاف المطاعم المجهولة، والحبس بكوب شاي، وتغفيلة ما بعد الغداء على الكنبة أمام التلفزيون، المائدة بالنسبة له مناسَبة للأناقة، والطبخ مناسَبة لتمارين الخيال. شخصٌ وجبة الطعام معه مناسَبة للبهجة.

قلت لها: «لم تجعلني مخبوزات القرفة أستعيد شهيتي كاملة، لكنها على الأقل حركت شيئًا بداخلي».

ثم سألتها: «تحبي نتعشى سوا؟ «شمباشي الكبابجي» صديقي، وهو تحفة زمانه في ملعب الكباب».

سألتني: «وإشمعنى الكباب؟».

كان السؤال الذي أيقظ الحيوان النائم.

الطعام هو اللحم، وما عداه مجرد مشهيات وأشكال

جمالية. هناك من يخاف اللحم ويحذر الناس منه لأنه يُقسِّي القلب. هناك قاعدة تقول: «ليست كل اللحوم محرَّمة، ولكن كل ما هو محرَّم لحوم». وسمعتهم في برنامج يقولون إن مدمن اللحم كمدمن الخمر. ولكن كل هذا لا يمنع أن «اللحم سيد الطعام».

لا يعرف أحد كيف ظهرت فكرة أكل اللحوم.

تقول الأسطورة إن صاعقة ضربت جديًا يمتلكه، ولا شيئًا غيره، فلاحٌ فقير، وعندما أحرقته الصاعقة انبعثت منه رائحة طيبة خففت أحزان هذا الفلاح.

احتل «سيد الطعام» هذه المكانة لأن الواحد يأكله بحنين الشيء إلى نفسه. يستدرجك الكبابجي بأن يُلقي وسط النار قطعة دهن، تتصاعد عن احتراقها القاسي رائحة تخاطب شهواني كلاسيكي بداخلك، رائحة لا يمكن للواحد أن يخطئها، تمامًا مثل «ريحة الحبايب».

أما الكفتة، ففيها متسع لكل شيء؛ خليط مضلل لمن لا يدقق. لذلك يُقال عن الشخص الذي يملأ الدنيا ضجيجًا بلا فائدة حقيقية: «كفتجي». ومن أجلها خُلقت الطحينة، كاعتذار عن كرامة اللحم التي أُهينت في المفرمة مع قطع البصل. ومنديل الدهن الذي يحول الكفتة إلى طرب، هو مجرد كذبة بيضاء. ويظل الأصل في الموضوع هو

الكباب؛ قطع اللحم الصريحة التي تزداد بريقًا إذا ما كانت محاطة بمساحة من الدهون تسهل المضغ، وتضيف إلى طعمها ما يشبه سكر السمن البلدي الساخن. يا حبذا لو أن هذه الكتلة السمينة قد التفت بالطول وتجعدت حول قائم قطعة الريش التي تخبرك درجة لمعانها بالعصارة الحلوة التي تدخرها لك.

أما قطع البقدونس التي يفترشها اللحم وتلتصق به، فهي نعمة كبيرة؛ إذ إنها تخفف حيوانية فكرة لحم يستقبل لحمًا.

في المشاوي رصانة قصائد أم كلثوم التي تطل عليك بعد منتصف الليل عبر الراديو في ليلة شتوية، بهجة القسط الأخير في رحلة كانت مرهقة. هناك شيء ما في المشاوي يُرضي غرور الإنسان، قطع اللحم التي تتراص أمامه خاضعة بلا ضجة. صحيح أنها «أكلة خرساء» لا مساحة فيها للخيال، ولا يمكنك أن «تستطعمها يومين ورا بعض»، لكنني أصدق ما قاله الحكيم الخواجة: «بعد لحم جيد يستطيع الواحد أن يغفر أي شيء».

قالت: «أنا جُعت».

قلت: «نخرج».

كانت تراوغ، ثم بدا واضحًا أن فكرةً ما ظهرت لها، قالت: «فلنلتقِ يوم العطلة في جراج الأوبرا في الرابعة».

طلبت تفسيرًا، لكنها تهرَّبت.

أجلس داخل سيارتي في ساحة الجراج، أتابعها من بعيد وهي تحاول أن تصف سيارتها أسفل شجرة كبيرة. نزلت وأشارت لي أن «تعالى».

بينما أقترب منها رأيتها تفرش فوق غطاء السيارة مشمعًا بلاستيكيًّا، وتُخرج من السيارة طبقين كبيرين ملفوفين بالفويل. سألتها عما تخبئه، قالت إنها أحضرت ما قد يساعدني على استعادة شهيتي كاملة. رفعت الغطاء عن واحد قائلة: «أرغفة حواوشي بيتي لا أحد يُعدُّها مثل عمتي. لا تخبزها داخل أرغفة العيش البلدي الجاهزة، ولكنها تخبزها داخل العجين».

أما الخيار المخلل في الطبق الثاني، فقالت إنها تفضل أن أتعرف عليه بنفسي.

كانت الأرغفة شهية، وكنت أنظر إلى نفسي محاولًا أن أعرف كيف تراني صافية. وجدتني ممتلئًا قليلًا، أضحك بصوت عالٍ، أتباسط مع الجميع، معبأ باللماضة، أصابع قدمي تشبه الفرنش فرايز، أُدخِّن، لي صور يعلوها وقار كاذب في استاد القاهرة مع أصدقاء، والحقيقة أننا كنا نجلس منهارين من فرط الحشيش الذي دخنَّاه قبل الماتش، ليس مكتبي فقط ولكن حياتي كلها نموذج للفوضى، أهتم بمظهري لكنني أنا أيضًا لا أرتدي الفساتين، ولم أكن

متأكدًا إن كنت ذكيًّا أو سريع البديهة، لكن يسعدني أن أُضحك شخصًا ما.

الخيار المخلل كان طعمه وقوامه أقرب إلى المسطردة.

أما صافية، فقد كانت في تعاملها معي تقف عند حدود العادي، وتتفادى أي شيء يوحي بأننا قد نتقدم يومًا ما خطوة إلى الأمام، وهو ما أربكني بشدة.

اليوم الثاني

(١)

قبل النزول إلى المدرسة دخلت إلى غرفة أبي، كان نصف مستيقظ، والراديو إلى جواره مفتوحًا.

أبي موظف كبير في الجمعية التعاونية للبترول، ينادونه «باشمهندس إبراهيم»، على الرغم من أنه درس الحقوق. روحه في والدته «الجدة كوكب»، وقلبها مُعلَّق به أيضًا، ليس لكونه أصغر أطفالها، ولكن لأنه فقد والده قبل أن يُتم السادسة. تحكي دائمًا بمرارة عن كونه لم يرَ العز الذي رآه شقيقه الحسيني الذي يكبره بسبع سنوات ويعيش في القاهرة. تُبرِّر الجدة أخطاء أبي دائمًا بـ«اليُتم»، حتى قسوته معي سمعتها وهي تحللها لأمي بأنه لم يرَ «الدَّلع». لم تتزوج جدتي بعد ترملها، وأخلصت لولديها وبقية العائلة.

كانت كبيرة عائلة بـ«الدِّراع»؛ عندما عرفت أن شقيقها يستغل مضيفة العائلة عقب وفاة والدهما في استضافة مقاطيع يلعبون القمار معًا في صحبة الخمور، جمعت جدتي عصبة من السيدات اللواتي يخدمنها، وحملن العصي والسواطير باتجاه المضيفة في هجمة مباغتة على جلسة الأنس، أثرن فزعًا قطع رِجل شلة الفساد، واستعادت مضيفة العائلة هيبتها.

بعد فترة عندما عرفت أن أولاد هذا الشقيق يجتمعون في المضيفة بصحبة محامٍ، يتدارسون معه كيف يمكنهم أن يشككوا في قوى والدهم العقلية حتى يستطيعوا أن يحجروا عليه وينفردوا بثروته على حياة عينه، جمعت جدتي العصبة القديمة نفسها، وهجمن من جديد على المضيفة، وهددت أن تفضح كل واحد أمام زوجته وأولاده. أدهشهم أنها تعرف كل شيء: هذا لديه زوجة سِرِّية في مدينة بعيدة، وهذا أكل حق شريكه في الأرض وماكينة المياه، والثالث لحس الأفيون عقله.

اختارت الجدة ألَّا تقيم في عز ابنها الأكبر الذي يقيم مع زوجة بلا أولاد في القاهرة. تقول سرًّا: «الحسيني عمره ما بَيِّن كرامة». اختارت أن تبقى إلى جوار إبراهيم، وكانت حجتها التي تكررها دائمًا: «علشان أبقى جنب باب الطيارة اللي هتروحني».

أرى والدي وهو يُقبِّل يدها دائمًا، بسبب وبدون. لا يُدخِّن أمامها، ويبدأ بها دائمًا عند توزيع اللحوم على المائدة، وعندما يحتدم الخلاف بينه وبين أمي، تنحاز الجدة إلى الأم، وأسمعها تقول له: «مش هتلاقي زيها، أنا عايزة مصلحتك». لم يعصِ لها أمرًا إلا مرَّة واحدة عندما كبَّر صورتها ووضعها في برواز وعلَّقها في الصالون؛ كانت منزعجة، وطلبت منه أن «ما أنا قاعدة قدامك.. ابقى علَّقها لما أموت». تجاهل أبي الموضوع، إلى أن رأيت عم سيد في يوم يرفع البرواز بأوامر من الجدة، ويُعلِّق مكانه آخر كانت قد اشترته خصيصًا؛ لوحة كروشيه تلهو فيها قطط صغيرة بكرات من خيوط الصوف.

اعتدل أبي قليلًا في فراشه عندما دخلت عليه. قلت له: «شكرًا على التلفزيون». وقبل أن أسمع منه ردًّا قد يحبطني استغللت ظهور صوت فؤاد المهندس قائلًا: «كلمتين وبس»، وتحججت بأنني قد تأخرت على المدرسة ثم خرجت سريعًا.

(٢)

على باب الشقة قالت لي أمي إن السمك سيكون بطل مائدة الغداء اليوم.

عرفت أن بائع أسماك متجولًا طرق باب شقتنا بالأمس، حاملًا مقطفًا به سمك طازج اصطاده للتوِّ، وأن جدتي وضعت كرسيًّا على باب الشقة وجلست تختار السمك بالواحدة.

أعرف جيدًا أن أمي لا تستلطف السمك. سمعتها تقول في مرَّة: «أنا كرهته، عمري ما عملت سمك في البيت إلَّا واتنكدنا». أنا أيضًا لا أضعه في أولوياتي، لكنني لن أنسى أبدًا مائدة السمك التي دعتنا إليها طنط ألحان قبل فترة؛ مائدة جعلتني أؤجل فكرة أن يكون رفضي للأسماك باتًّا ونهائيًّا: حبات الجمبري الضخمة كثيفة الغطاء عارية البطن إلا من خيوط الكرفس الخضراء، وقد نامت في الطبق مشرقة ومتفتحة كأزهار عباد الشمس، رصة أسماك البوري التي سُقيت بـ«دقة» بقي منها فوق الجلد أحمر الشطة وبياض الملح يزين أسود الردة اللامع، الفضة بكل درجاتها تُطل من سرفيس سمكات الدينيس التي نضجت بخلطة الزيت والليمون، وقد تزين مقامها بقطع الفلفل الأخضر الحامي، الأرز الأحمر المصبوب في قالب تُطل من خلف جدرانه قطع السيبيا ذات البياض الشاهق وأطراف ذات خطوط وردية لقطع جمبري تنام بالكامل داخل القالب، ارتاحت قوالب البطارخ فوق وسائد من حلقات الطماطم الذائبة في فخارة صلصتها

كثيفة، واستسلمت قطع الرنجة المشوية لمصيرها بين أمواج الطحينة اللامعة، وعلى استحياء كان يُطل من بعيد طبق كبير تنام فيه ثمار الباذنجان المسلوق القصير التي شُقت بالطول، بينما ترقد في سلام داخل هذه الشقوق عجينة الثوم المهروس مع الكسبرة.

كنت أسير على مهل أستطعم ذكرياتي، ثم حدث أن ظهرت سحر.

كانت بصحبة زميلة لها في الطريق إلى مدرستها التي تسبق مدرستي بأربعة مبانٍ.

سبقتهما بعدة خطوات، ثم توقفت ومثَّلت أنني أربط حذائي كي أرى وجهها.

رأيتها تضع يدها على فمها وتسعل، لم يكن سعالًا حقيقيًّا، كانت تنقل لي رسالة: «لم أظهر الأيام الماضية لأنني كنت مريضة»، ثم مررت كفها فوق رأسها من الأمام إلى الخلف مرَّتين.

تلاقت أعيننا أنا وزميلتها، فنهضتُ واستدرت ثم أكملت طريقي منتشيًا.

في هذه الفتاة شيء يفرض عليَّ قلقًا مرحًا، واضطرابًا عقليًّا ترتاح له روحي. سمعت في الأفلام كلامًا كثيرًا عن الحب، يمتلئ بالحرارة والتنهيد، لكنني لم أجد جملة واحدة تعبِّر عني: البطل الذي قال لحبيبته إنه سيُحضر لها

القمر، أعيش في مجتمع لن يسمح لي أن أشتري لسحر علبة صن توب برتقال. والبطل الذي قال إن حبيبته جعلته ينسى العالم، أنا شخصيًّا حياتي مع رجل من نوعية أبي جعلتني أعيش و«عينيَّ في وسط راسي». ثم إن سحر لا تشبه نجمات السينما، هي عادية لكنها فاتنة، وفتنتها أنها جعلتني أُحب نفسي.

(٣)

قالت أمي إن أبي سيتأخر قليلًا، ولن تقوم بتحمير السمك إلا وهو على السفرة.

نتناول طعامنا كل يوم على سفرة بستة مقاعد خشبية. ما عدا الجمعة؛ نجلس جميعًا على الأرض حول طبلية خشب من مقتنيات طفولة أبي، وهي أيضًا تناسب وجبة يوم الجمعة، مع موسيقى تتر برنامج الشيخ الشعراوي تكون الروائح قد انطلقت قادمة من مطبخ الأم، تُبشر الواحد بالوجبة المرتقبة التي ستتجمع حولها العائلة، بينما فيلم أبيض وأسود أو مباراة مذاعة في الخلفية؛ الوجبة التي تقوم معظم الوقت على الفول، إسكندراني أو طاجن أو بالخلطة، وفي ضيافته قرص العجة، وكل

ما يمكن قليه من البطاطس إلى الفلفل والباذنجان، وطبق الجبنة القديمة بالزيت والليمون، وأرغفة بلدي ساخنة لا يمكن حصر عددها.

رن جرس التلفون رنة طويلة مميزة أحفظها (ترنك).

كنا أقدم سكان العمارة، وكان التلفون الوحيد بها هو تلفون شقتنا. توصيل التلفونات إلى البيوت كان يتم بالدور. سمعت أبي بعد تشغيل الخط العام الماضي يقول إنه ينتظر دوره منذ أربع سنوات. كان يوم وصول العدة الرمادية ذات القرص الدوار مبهجًا، سلَّموا معها دليلًا للتلفونات مطبوعة فيه أسماء وأرقام كل من في المدينة. قضينا الليل نفتش عن أسماء أقاربنا، ونتلقَّى في الوقت نفسه منهم اتصالات التهنئة: «يا رب تسمعوا فيه الأخبار الحلوة». ونرد التهنئة على كل واحد بفرحة قراءتنا لاسمه في الدليل.

ظللنا لفترة طويلة كلما خرج أحد من غرفته باتجاه الحمَّام أو المطبخ يُلقي نظرة ليطمئن على استقرار الجهاز في السَّبَت ذيَ الكسوة الكروشيه التي صنعتها له الجدة.

كانت رنة استقبال المكالمات مصدر إثارة بالنسبة لي، لكنها كانت مصدر توتر للجدة، فترفع يديها ساعة سماع الرنة: «اللَهم اجعله خير»، وعلَّمتنا جميعًا أن نُسمِّي الله قبل الرد.

قرر أبي وأمي ساعة استلام التلفون أن يصنعا له سلكًا طويلًا يجعله سهل الوصول إلى شقق الجيران الأقرب لنا في العمارة. أعطيا بعض البيوت رقم تلفوننا (٢٢٩ مستجدة)، حتى يمكنهم استقبال المكالمات المهمة. لم تكن مهمتي الأساسية هي سحب السلك حتى بيت الجيران إذا كانت هناك مكالمة لهم، ولكن المهمة الحقيقية هي كيفية جمع السلك بطريقة لا تجعله يتعقد. كنت أنجح مرَّة، ومرَّة أسمع صوت أبي من الصالة وهو يصيح غضبًا من الحيوان الذي عقد السلك بهذه الطريقة.

الرنة الطويلة تعني «ترنك»؛ مكالمة من خارج المدينة. كان الموعد غريبًا، اعتدنا دون سابق ترتيب على أنه لا اتصالات في فترة الغداء والقيلولة، لذلك توترنا جميعًا مع وصول الأب الذي بدا واضحًا أن الرنة وموعدها أزعجاه بالفعل.

رد الأب، واستمع بانتباه، ثم قال للمتصل: «هابلغهم. البقاء لله».

أتت جدتي تهرول من آخر الصالة ويدها فوق صدرها، وجلست أمي على أقرب مقعد ترتعش.

قال أبي: «أخو أم سمير الذي يعيش في الإسكندرية تُوفِّي. سيصل فجرًا، وسيدفنونه بعد صلاة الظهر، وطلبوا مني أن أبلغها».

تماسكت الجدة، واختبأت في «لا حول ولا قوة إلا بالله». ارتبكت الأم واصفر لون وجهها وهي تسأل أبي لماذا لم يحمل لهم التلفون ليبلغها المتصل بنفسه. قال إن الخبر أربكه.

كان هذا هو أول خبر حزين يحمله التلفون الجديد. مهمة صعبة، كيف سنُخبر أم سمير؟ جلس الثلاثة في أماكنهم صامتين يفكرون لفترة طويلة، ثم قالت الجدة: «سأُغيِّر ملابسي وأنزل إلى شقتها». قالت الأم: «خذيني معكِ». لكن الجدة رفضت: «شوية كده وانزلي».

خرجت الجدة من غرفتها بعد قليل، في أناقة يلفها اللون الأسود. كانت تسير ببطء وهي تتمتم بأدعيتها الخاصة. كانت شفتاها تتحركان سريعًا. أشارت ناحيتي فاقتربت منها، وضعت ذراعها فوق كتفي، واستندت إليَّ حتى وصلنا إلى باب شقة أم سمير، ثم طلبت أن «اطلع إنت».

عُدت فوجدت أمي قد غيَّرت ملابسها وارتدت الأسود وتستعد للنزول في لحظة ما. جلست على كرسي الصالون الأقرب للباب، واضعةً خدها فوق يدها. كان أبي يصلي. جلست أتأمل هذا الصمت الذي يلف البيت، صمت مُربك تهشم بقسوة بعد دقائق إثر صوت صرخة أم سمير.

(٤)

لا سمك ولا غيره.

الجدة والأم عند أم سمير من قبل العصر، والساعة تقترب من الثامنة، وأنا أحتضر جوعًا.

هل أنا حيوان؟

نعم أنا حيوان جائع.

زارتني فكرة، فخرجت إلى الصالة. كان أبي يجلس ممسكًا بـ«الأهرام»، مرتديًا نظارته، ويُدخِّن سيجارة في صمت. قلت له: «هاعمل بيض، أعمل لحضرتك معايا؟». فكَّر في الأمر لمدة عشر ثوانٍ، أنزل نظارته وبينما يطفئ سيجارته قال: «بس ما تحطش ملح كتير».

دخلت إلى المطبخ فرحًا. عبر المنور يأتي من شقة أم سمير صوت البكاء والنواح وقد اختلط بصوت القرآن القادم من الكاسيت، لكنني كنت سعيدًا؛ لقد كنت منذ ثوانٍ الأب، وكان أبي هو الابن، شعرت بجوعه وعرضت المساعدة، والمفاجأة أنه قَبل. هناك فرصة لتعويض مسحة من حرمان اليُتم الذي عاشه، هو إنجاز صغير قد يساعدني في التحدي الدائر بخصوص الحفل، لكن كلي ثقة أنني سأفسده في أقرب فرصة، أنا أعرف نفسي جيدًا، لذلك طردت الحفل من رأسي وفكرت فقط في فرصة نادرة

أستطيع أن أقول من خلالها لهذا الرجل كلامًا كثيرًا.
قررت أن أقدم لأبي أحلى طبق بيض ممكن.

أبي ليس أكولًا، لكنه ذوَّاق.

لا يشبه بقية رجال العائلة في علاقتهم بالطعام، يأكل بهدوء وبدون صوت. بخلاف قريب لي يأكل على الجانبين وتنبت في وجهه خلال المضغ بالونتان، واحدة في كل جنب.

لم يحدث يومًا أن توقَّف عن عادة اقتطاع جزء من أشهى عنصر في طبقه ووضعه في طبق أمي. كنت أرى أمي كل مرَّة على المائدة والقلق في عينيها خوفًا من أن ينسى أبي عادته، حتى يفعلها فتبتسم. بخلاف قريب لي وقف على حافة الطلاق مع زوجته لأنها طهت زوج حمام، فردة لكل واحد منهما؛ اعتبر هذه المساواة إهانة.

سمعته يطلب من أمي ألَّا تُغلق عليها باب المطبخ أثناء الشوي أو التحمير، يقول لها: «رائحة الخير». أعرف قريبًا لي يُغرق أهل بيته في الفول والطعمية والبصارة لأنه لا يطيق رائحة الطبخ.

مشكلة أبي الوحيدة أنه يتحول إلى قِطٍّ ليلًا، يقوم جائعًا ولا مانع لديه في تناول أي طعام تصل إليه يداه. توقفت أمي عن سلق اللحم في الليلة التي تسبق طهوه، لأن أبي كان يصحو فجرًا نصف واعٍ فيلتقط بالشوكة من الإناء

ما تيسَّر. تعنفه أمي فيقول: «كنت نائمًا». تقول: «نايم إيه؟ ده أنت مِسخَّن عيش ومِطلَّع علبة الفلفل الأسود من النملية!».

يحب أبي من اللحم الرقبة والموزة، ويحبه صريحًا لم يخضع لإعادة تصنيع، محمرًا في الطاسة أو مع الشوربة والثوم في الفرن. ويرفض بقية أشكاله سواء البوفتيك أو الكفتة. لا يؤمن بالمكرونة، ويرى أن البشاميل عك، وإذا صلح الأرز صلحت الوجبة كلها. يبدأ طعامه بأن يضع ملعقة واحدة منه في طبقه، يختبرها بأن يفصل كل حبة عن الأخرى ثم يتناولها ويمضغها على مهل، فتطل من عينيه درجة الحماس التي سيُقبل بها على الأكل.

في ليالي الشتاء كنت أرى جدتي تضع أمامه طبق العدس الأحمر والرغيف الشمسي ومنطال السمن البلدي، وكلما غابت بقعة السمن عن وجه الطبق كانت جدتي تضع له واحدة جديدة.

لديه عادات ثابتة: فص الثوم صباحًا على الريق لتنظيف الشرايين، الشاي بعد الأكل، فاكهة الاستيقاظ من النوم عصرًا، والإفطار أربع ملاعق فول مع ملعقة زيت ونصف ليمونة.

هو الذي يشتري اللحم بنفسه، ذهبت معه مرَّة وحيدة إلى الجزار، وضع كرسيًّا على باب المحل أمام الذبيحة

المُعلَّقة، وكان كل قليل يشير للجزار ناحية قطعة معينة: «هات دي.. ودي». سمعته يقول إن الأكلة الأسوأ هي الأكلة «بنت نارين»، نار التسوية ونار إعادة التسخين. ثم إن عمل طبق السلطة حق مكتسب لا يتهاون فيه.

أحب أن أتناول طعامي على مائدة يترأسها هذا الرجل؛ يعرف ما يحبه كل واحد من قطع اللحم أو أجسام الطيور، يقترح حلولًا للشهية الضعيفة، و«خلَّص طبقك» مسألة حياة أو موت بالنسبة له، لكنني أمتعض كثيرًا من اللحظة التي تتحول فيها المائدة إلى مدرسة.

هو يعرف جيدًا أن ابنه يمتلك معدة ثور هائج، وأنه لا سبيل إلى ترويضها، فكان الحل بالنسبة له هو تهذيب أخلاق صاحب هذه المعدة.

تعلمت على المائدة أكثر مما تعلمت في مدرسة «الشهيد عبد المنعم رياض الإعدادية للبنين». المزعج أن الدرس كان يبدأ في منتصف استمتاعي بمضغ تركيبة تعبت في إعدادها. يبدأ كلامه فيصبح التوقف عن المضغ إجباريًّا للإنصات، أنا الآن جمل يخزن طعامًا ويستمع إلى تعليمات والده:

البطنة تُذهب الفطنة يا عبد الله، كُل ما تشتهي فقط لأن ما لا تشتهيه هو الذي يأكلك، الشبع يميت القلب، فلتغادر المائدة لا جائع ولا شبعان، صغر اللقمة، لا تُصدر صوتًا،

لا تتكلم وفي فمك طعام، لا تنظر إلى طبق غيرك، لا تقم عن الطعام قبل أن نقوم جميعًا، ولا تجلس قبل أن نجلس، لا تضع ملعقتك في الإناء الذي نغرف منه جميعًا، لا تُقلِّب محتويات الإناء قبل الغرف منه، امضغ جيدًا، اعزم على ضيوفك. كان يقول: «المائدة مُرزَقة، من كان مِضيافًا وسَّع الله عليه، بيتٌ أنت مدعو إليه لا تقُل لصاحبه على المائدة «إديني»، لا تطلب من صاحب البيت إلا اتجاه القبلة».

كرر عليَّ وصية طبيب أحد الخلفاء قديمًا عدة مرَّات حتى حفظتها: «لا تأكل من اللحم إلا فتيًّا، ولا تأكله حتى ينعم. ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها. ولا تأكل إلا ما تجيد مضغه. وكُل ما أحببت، واشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل عليه. وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فتمشَّ ولو مائة خطوة».

بداخله فيلسوف لم يحصل على فرصته في ملاعب واسعة، فقرر أن يستعرض مهاراته في الحدود المتاحة على ضيقها، سفرة الطعام مثلًا. أُحب نظرياته، وهي بالنسبة لي دائمًا موضع تأمل، وكثيرًا ما أُدوِّنها في هوامش الكتب أثناء المذاكرة: «الكوسة بترضَّع القلب»، «شوربة العدس كلها مسامير»، «مفيش أكلة لها بيات غير البامية»، «السمك يحب البطيخ»، «الجوافة فاكهة الغلبان»، «اللقمة تعرف صاحبها»، «محدش واخد منها حاجة غير اللقمتين».

اختلى بي في مرَّة مقدِّمًا درسًا خصوصيًّا، قال لي أنت «تلغ» وتفوتك متع كثيرة:

متعة النظر والاستمتاع بالطعام وألوانه، نسوة المدينة اللواتي قطعن أياديهن، بالبلدي «أكلوا صوابعهم» بعد وجبة النظر إلى جمال سيدنا يوسف.

متعة الشم، رائحة الطعام الشهي تشبه الأخبار الحلوة، تشبه بُشرى باب حظك اليوم الذي تفتح عليه الجرنال كل يوم، خبر سار في الطريق إليك، بهجة انتظاره أحلى منه أحيانًا، إثارة مجانية، تشبه إثارة الدقائق التي نقضيها في انتظار أن يبدأ ماتش مهم.

متعة المضغ، ضع حبة أرز فوق لسانك وامضغها، ثم تجوَّل بالطحين داخل كل نقطة في فمك، ستستشعر حلاوتها أينما وجَّهتها. يريد الله منك أن تستمتع إلى أقصى درجة، فوضع ملايين الخلايا العصبية في كل ملِّيمتر فوق لسانك وحوله، كل واحدة قادرة على الاستطعام، فلماذا تحرمها وتحرم نفسك من هذه السعادة، الاستطعام بهجة عظيمة، والتذوق عبادة.

متعة البَلع، أنت ترسل هدية إلى معدتك التي تحبها، تمهَّل وامنحها فرصة أن تتأمل الهدية، كن كالعاشق الذي يضع الصندوق أمام حبيبته ويُخرج لها منه قطعة قطعة، ومع كل قطعة تفرح من جديد، لا تعامل معدتك كبئر

تود أن تردمها في أسرع وقت، امنحها فرصة لأن تفرح، وصدقني ستفرح أنت أيضًا.

قال أبي إن التجشؤ متعة، رسالة شكر من المعدة، من بين ما أهديته إليها، تُذكِّرك بأن الهدية الفلانية بالذات قد أعجبتها، وترسل إليك شيئًا من ريحتها.

لم يكن أبي يقول كلامًا نظريًّا، كنت أراه يُطبِّق كل درس على نفسه. شيء واحد فقط أثار تعجبي: كان أبي مِضيافًا عظيمًا، لكن عقب كل عزومة كان «يعكتن» على أمي، فكرت كثيرًا في الأمر إلى أن عرفت أنها الغيرة.

كانت براعة أمي تدهش ضيوفها كل مرَّة، ومنذ انطلاق الرائحة قادمة من المطبخ حتى انصراف الضيوف، كانت أمي تتلقى عبارات المديح والإعجاب. قال لها أحد أقاربنا في مرَّة وهو تحت نشوة طعامها: «طبيخك أحد الأشياء التي تدل على وجود الله».

كنت أراقب أبي وهو يتابع زوجته محاطة بنظرات المحبة والافتتان من رجال العائلة كبيرًا وصغيرًا، وأبي عاشق متيَّم، يؤذيه أن يرى هذه الحفاوة البادية في العيون تجاه أمي كيفما تحركت، يظل في حالة شحن مستتر حتى ينصرف الضيوف، ثم يفرغ الشحنة لأتفه سبب (سمعته يفرغها ذات مرَّة انطلاقًا من أن الجيلي كان «من غير موز»). بالوقت صار برنامج أمي «يوم العزومة» معروفًا:

ينصرف الضيوف، دش ساخن، كوب شاي بالنعناع في الفراش، ثم النوم حتى صباح اليوم التالي.

على الرغم من هذا لم تنقطع الولائم عن بيتنا.

عندما سمعته يتحدث في مرَّة عن «العيش والملح»، سألته عن سر اختيار هذين العنصرين للتعبير عن الإخلاص، قال إنهما أساسيان ولا خلاف عليهما، ولا يمكن لأي شخص على الكوكب أن يستغني عنهما، العيش بلونه الأسمر وبياض الملح، لونان يلخصان تجربة الحياة، يوم غامق ويوم فاتح. قال لي إنه ميثاق غليظ، ومقياس الرجولة الأول. وحكى لي يوم أَسَر أحد الخلفاء عددًا من جنود الأعداء وأمر بقتلهم، فطلب منه أحدهم ألَّا يقتلهم وهم جوعى وعطشى، فأمر لهم بالطعام والماء، وبعد أن أكلوا وشربوا، قالوا له لقد أصبح بيننا عهد وميثاق، فعفا عنهم.

وكرر لي النصيحة بأن أُدقق جيدًا لأعرف من الذي يستحق أن أقبل من أجله مسؤولية «العيش والملح»، لأنه ورطة، الرجال فقط هم الذين يتحملون تبعاتها بإخلاص، العيش والملح البطولة فيه للوفاء والتسامح، والخيانة أن تُسقطه من حساباتك منفردًا حتى لو كانت لديك أسبابك.

كنت قد ألقيت في الطاسة ملعقة كبيرة من السمن البلدي الأخضر، ومع بداية صوت الطقطقة ألقيت نصف

قالب من الجبن القريش بعد أن فتتته قطعًا صغيرة، تركته قليلًا حتى يتشرَّب السمن، ثم أفرغت فوقهما أربع بيضات بلدي، وقلَّبت المزيج كله حتى تماسك قوامه، ورفعته من على النار قبل أن يفقد ليونته ولمعانه، نطرة فلفل أسود، ثم نطرة ملح وكمون، وسخنت أربعة أرغفة، ثم وضعت الصينية أمام أبي، ولم أنسَ حبَّات اللفت الذي تخلله جدتي.

كان أبي جائعًا، وأنا أيضًا، لكن رعشة خفيفة سرت في جسدي عندما ابتسم أبي بعد أول لقمة جعلتني أنسى الجوع، هذا الطفل اليتيم يبدو سعيدًا، وأنا الآن أتشمم رائحة استمتاعه. قال شيئًا لم أسمعه جيدًا، كنت مشغولًا بالتدقيق فيما أشعر به الآن، فبعيدًا عن كلَ أهل المنزل كنا نجلس أنا وهذا الرجل وحدنا نُوقِّع معًا ميثاق العيش والملح.

(٥)

سمعت أغنية ذات مرَّة في راديو مطبخ أمي، لم أعرف المطربة ولا اسم الأغنية، وخجلت أن أسأل أمي، قلت لخالي إن المطربة تكرر طوال الأغنية مفردات الكتابة و«هاكتبلك»، قال لي سريعًا: «فايزة أحمد، على وش القمر».

نسيت الموضوع، لكنه مر اليوم قبل عودتي من المدرسة وترك لي شريطًا يحمل الأغنية.

يجمعنى بالخال كل ما له علاقة بالحياة: الكرة، والأغاني، وأفلام السينما، ولعبة الصراحة، والنميمة، والنكات الفاحشة، وتقليد الأقارب.

كان يقف في شباك الغرفة يُدخِّن ويغني مع الصوت القادم من الكاسيت: «أشكي لمين». كانت هذه هي اللحظة التي وقعت فيها في غرام محمد منير.

بخلاف لعبة الصراحة، اخترعنا معًا لعبة «الناس والرائحة». حكيت له يومًا أنني حلمت بمحمد علي باشا كان في زيارة منزلية لنا، وعندما طلبت مني جدتي أن أصافحه وأجلس إلى جواره، وجدت أن رائحته كمون.

قال خالي: «الكمون غدَّار».

سألته عن السبب، فقال: «لأنه بيجوَّع، أسرع وجبة يتم هضمها هي التي تمتلئ بالكمون مهما كانت الكمية، السمك مثلًا».

كنا نفكر في تحليل لرائحة محمد علي باشا، وخطر لنا سؤال: كيف هي رائحة المشاهير الذين لم نلتقِهم يومًا؟

قلت لخالي: «فلتبدأ».

قال: «جمال عبد الناصر».

بعدها انفتح باب اللعبة ولم ينغلق، نُسلِّي بها أنفسنا

في أوقات الملل. كانت تمرينات خيال ممتعة، علمتني أن أُدقق في أثر الرائحة دائمًا، وأنضجت موهبة الكلب البوليسي الكامن في قلبي.

تجوَّلنا كثيرًا بين الأسماء المعروفة، وكنا عادةً نخرج شبه متفقين على النتائج التي وصلنا إليها:

رائحة الزعيم جمال عبد الناصر هي خليط من رائحة السجائر وكولونيا الـ«٥٥٥» ومعجون الحلاقة الذي يستخدمه أبي.

رائحة عبد الحليم حافظ هي تلك الرائحة العُشبية الرقيقة التي تنطلق عقب قص الحشائش وتقليم الأشجار وقصقصة فروعها.

حسني مبارك رائحته صابون التموين «إم ١٢» أبو ريحة.

إسماعيل يس رائحته تشبه رائحة رف الشاي والسكر في دولاب خزين جدتي.

أم كلثوم رائحتها قريبة من رائحة الخبز البلدي الخارج حالًا من الفرن.

ريا وسكينة رائحتهما تُشبه الرائحة المنبعثة في أعقاب محاولات فاشلة لإشعال وابور الجاز.

أحمد زكي بطل «النمر الأسود» رائحته تُشبه خليط رائحة براد شاي يغلي مع رائحة منقد خشب الأشجار المتوهج كالجمر ينام فوقه براد الشاي مائلًا بزاوية.

فريد الأطرش رائحته قمر الدين.

ليلى مراد رائحتها فانيليا.

سعاد حسني رائحتها كراميل محروق.

نادية الجندي لا رائحة لها.

خالي في السنة النهائية في كلية التجارة. أُحب شلته، أسرق لحظات من المتعة معهم، يحتفون بي محبة في خالي، وإعجابًا بصراحتي الفجة. ربما كانت عِشرة هذه الشلة السبب في أن الناس يرونني أكبر من سنِّي. لولا أبي الذي يُحرِّم اختلاط المراهقين بالأكبر سنًّا لكنت عضوًا ثابتًا في شلتهم. يقيم الخال في بيت خالتي لأن زوجها في الإمارات، لكنه لم يتوقف يومًا عن زيارة أمي.

وضعت الشريط الذي تركه لي خالي مع أمي في الووكمان الباناسونيك الذي أحضره لي أحد أقاربنا من الكويت. في أذني السماعات، وفي يدي البلوك نوت الأصفر الذي تبقَّت فيه صفحة واحدة فارغة.

كنت أقف مع أمي عند المحل الوحيد الذي يبيع علب الشوكولاتة والبونبوني لشراء واحدة قبل زيارة عائلية. من منزل قريب خرجت سحر، وقفت مع رجل كبير على الرصيف، تبادلنا نظرات سريعة، فأصابني غضب عارم؛ لأنني لم أعرف ما هو سبب كل هذا التوتر الذي أصابني، لم أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله في هذه اللحظة، تلك

الفتاة الواقفة هناك في حوزتها شيء يخصني، لا أعرفه أو أعرف طريقة استعادته، هناك ألم ما في صدري، أغضبني أنني فَرِح به، ثم استحكمت الغصة عندما توقفت سيارة وحملتها هي ومن معها بعيدًا.

كنت أتلكأ كل يوم أمام منزلها، أراها مرَّة كل عشرة أيام، فتتجدد تلك المشاعر الحارقة القديمة، لكنها كانت تنعم بالوقت.

مع بداية الدراسة صار طريق بيتها هو طريق مدرستي. تخرج في موعد محدَّد كل يوم، حفظته. اليوم اللطيف هو الذي تتحرك فيه بمفردها، والمزعج هو الذي تتحرك فيه مع أحد من أُسرتها أو مع زميلاتها.

تحوَّلت النظرات بالوقت إلى ابتسامات، تُبديها هي بخفة وتَحفُّظ لثوانٍ قليلة، وأظل أنا أحتفظ بابتسامتي طوال اليوم حتى نلتقي أنا وأبي في البيت.

تطورت الابتسامة يومًا ما عندما مررت هي يدها فوق شعرها من الأمام إلى الخلف مرَّتين، فكررت أنا الحركة نفسها، فابتسمت.

في اليوم التالي بدأت أنا الإشارة، وكدت أموت فرحًا عندما ردت عليها بمثلها.

بعد فترة كاد شعر رأسي أن يسقط بسبب الجز عند المسح عليه من فرط الشوق، كما أنني مللت. فكرت في

واحدة جديدة، وضعت شنطة المدرسة في حضني وكانت رائحة ساندويتشات البيض بالبسطرمة تفوح منها، فخلعت هي الشنطة التي تضعها على كتفها بحمَّالات وثبتتها في الوضع نفسه.

دقيقة ونصف تجمعنا كل يوم في الذهاب، ومثلها في الرجوع.

كنت أفكر كل ليلة في شكل الرسالة الجديدة، وكانت مساحة الابتكار محدودة. لم أكن قد عرفت اسمها، وأعرف أنها في الإعدادية بنات ولا أعرف أي صف. وكنت أحرص خلال الدقيقة والنصف أن أكون أنا على رصيف وهي على الآخر وأسبقها بخطوة، ثم قررت في يوم بجرأة أن أنتقل للسير قريبًا منها على الرصيف نفسه، كان تطورًا كبيرًا في العلاقة.

ظللنا على هذا الوضع لفترة. وفي يوم بينما أسير خلفها، فتحتْ شنطة المدرسة وأخرجت منها شيئًا، رأيتها تتلفت يمينًا ويسارًا ثم تُسقطه من يدها أرضًا وتهرع باتجاه مدخل منزلها. انحنيت والتقطت بلوك نوت أصفر فارغ الصفحات، لكن مكتوب في صفحته الأولى: «سحر»، وقد رُسم حرف «الحاء» على شكل قلب وإلى جواره وردة رقيقة.

لم يكن هناك غير خالي.

نبَّهني أولًا إلى خطورة ما أفعله، ثم سألني عن شكلها. لم أعرف كيف يمكنني أن أصف هذه النحيلة السمراء، قلت له: «شكلها عادي». ثم طلبت تفسيرًا لما حدث.

قال: «هي تخبرك باسمها، وتُعبِّر لك عن مشاعرها في الوردة وحرف «الحاء»، وأسقطت من أجلك البلوك نوت الأصفر فارغًا لتملأه، لتعبر لها عن مشاعرك. عليك أن تضع فيه كل ما يدور في بالك وفي قلبك، سيكون البلوك نوت الأصفر هو قصة حبكما».

أنا؟

الشيء الوحيد الذي أُجيد التعبير عنه هو شعوري بالجوع!

فكَّر الخال قليلًا، ثم لمعت عيناه بفكرة، قال: «اكتب لها كلام الأغاني الذي تشعر أنه يعبر عنك».

من بعدها وأنا أستمع إلى الأغنيات بكامل حواسي، وأتوقف عند الجملة التي تتسارع عندها ضربات قلبي، فأُسجِّلها.

هناك أغنيات تقول كلامًا عابرًا؛ مجرد أغنية.

وهناك أغنيات تفتح مع الواحد «مواضيع».

في الصفحة الأخيرة من البلوك نوت كتبت:

على وش القمر.. على صوت المطر

على كل الشجر هاكتبلك يا حبيبي

حرفين من اسمي واسمك
وقلبي صابه سهمك
هاكتبلك يا حبيبي

فكَّرت كيف يمكن أن أُعيد البلوك نوت إلى صاحبته، وتخيَّلت مشاعرها وهي تُقلِّب صفحاته، ثم تخيَّلتها معي أنا وأبي أمام طبق البيض.

القاهرة (٢٠٠٨)

«السعادة عايزة حرامية، لأنها ما بتجيش غير سرقة».

كنت أحاول إقناع صافية بقبول دعوتي على الغداء في شقتي. قالت إن هذه الدعوة تُسعدها، لكنها «سرقة»، وهي تكره هذا الشعور.

كان قوام الدعوة: «سأطبخ لكِ بنفسي». تهربت مني كثيرًا، إلى أن قادها الإلحاح إلى اللحظة التي أبدت فيها موافقتها بشرط أن ننصرف فورًا عقب لَم السفرة، لنأخذ قهوتنا في مكان مفتوح. وكان شرطًا سهلًا.

دعوت أكثر من واحدة إلى شقتي، لم أطبخ لأيٍّ منهن، اختيارات الطعام الجاهز لا تنتهي، كما أن الأكل لم يكن هو موضوع هذه الدعوات.

ألححت في دعوة صافية، لأنني أردت من قلبي أن نأكل معًا داخل حدود بيت مقفول علينا. أعتقد أن هذا سيحسم أمورًا كثيرة مرتبكة بداخلي. ذهبنا إلى مطاعم كثيرة، منفردين

قليلًا وفي جماعات معظم الوقت، لم تكن تشعر براحة كاملة في انفرادنا، تظل صامتة معظم الوقت إلى أن تأتي سيرة من اثنتين: ذكريات الطفولة، أو الأكل، فتحتاج إلى معجزة تسكتها.

تغيبتُ عن العمل، بدأت بتنظيف المنزل، إفطار خفيف، دش ساخن، فنجان بُن محوج. وخلال كل هذا كنت أُفكر في المنيو، ما الذي يمكنني أن أطبخه لها.

كلما ظهر اسم أكلة في رأسي كنت أسأل نفسي: ما المغزى منها؟

كنت أُفكر في الرسالة التي ستحملها الوجبة لصافية:

مكرونة بالصلصة والريحان مع فيليه بصوص المشروم؟ وجبة شيك، لكنها تليق بعلاقة عابرة، وجبة تحمل رسالة «هيَّا نمرح لفترة».

مكرونة بالبشاميل مع البوفتيك؟ هي فكرة جيدة إذا كنت سأدعو خالتي على الغداء.

شيش طاووق مع خضار سوتيه بالثوم وزيت الزيتون وسلطة خرشوف؟ هذه وجبة غداء تليق باثنين لا بد أن ينفصلا في أقرب فرصة.

فخدة مشوية في الفرن مع مكعبات البطاطس وأرز بالخلطة؟ هذه وجبة ينقصها كوبان قمر الدين وخمس قطع سمبوسك لتصبح دعوة على الإفطار في رمضان.

كوارع مسلوقة بورق اللورا مع فتة بالخل والثوم والممبار؟ شعرت أنها مقدمة لتوقيع عقد «جوازة عُرفي».

أعمل لها إيه دي؟

فكرت أن أستحضر روح جدتي التي لحقتُ أيامها الأخيرة في المطبخ قبل أن تعتزل الملاعب، وأن أستحضر مع روحها الأكلات النادرة التي استقرت في الروح من مرَّة واحدة لم تتكرر: «كفتة المخ»، «بيوريه البسلة»، «فراخ بصلصة جوز الهند». توقف هذا السحر بخروج الجدة من المطبخ. أحاول أن أخمن السبب، أعتقد أن طعم الأشياء لم يعد على الحال نفسه الذي عرفته الجدة عندما طهت هذه الأطباق في شبابها. في الأجندة الضخمة التي تحتفظ فيها بصور شخصية للأقارب وأرقام تلفونات وإيصالات كهرباء وفواتير قديمة، لمحت مرَّة ورقًا شفافًا متآكلًا سجَّلتْ عليه الجدة بخط ركيك وصفات لبعض الأصناف، أتذكرها الآن وأقول لنفسي: لقد هجرت الجدة المطبخ لأن طعم «المسلي» يختلف عن «السمن»، وضبط جودة الطعام بمقياس «الأوقية للخضراوات، والرطل للحوم» يُعطي نتائج أكثر انضباطًا من مقياس «الكيلو لكل الأصناف»، من المؤكد أن «البهاريز» كانت أكثر طعامة وتأثيرًا من «الشوربة». اعتزلت الجدة لأنها لم تعد تعثر على ما يساعدها في الوصول إلى المذاق المحفور في

ذاكرتها، وكانت تشير إلى ذلك دائمًا باختصار مقتضب: «ده إنتو أيامكم ملهاش طعم».

ثم فكرت في مغامرة «محشي الخضراوات».

يُعيد «المحشي» تقديم المألوف بشكل سهل وجديد، المألوف هو «رز وخضار»، والجديد هو لمسة التسوية التي جعلتهما جسدًا واحدًا، ألَّفت بين حلاوتهما النار الهادئة والشوربة. انتهت الغربة على مائدة السفرة التي تجعل كل واحد منهما في مكان، انتهى شقاء المشوار بملعقة «الغَرف» من طبق الكوسة إلى طبق الأرز، انتهت غربة قطع الكوسة التي لم تغادر مكانها لتحظى بهذا اللقاء، وضاعت إلى الأبد مرارة حبَّات الأرز التي لم تطلها التسبيكة فظلت في مكانها بيضاء من غير سوء، أصبحا شيئًا واحدًا يتحرك بخفة من مكان إلى مكان.

أصعب مرحلة في طبخ المحشي هي التحضير، لكن ساعة «الاستطعام» لا يوجد ما هو أسهل من قضمة تذوب قبل أن تطبق فمك عليها. أكلة توقظ الطفل النائم بداخلك لأنها أسهل من «السيريلاك»، و«تطبطب» على شيخوختك لأنها لا تحتاج إلى أسنان.

يحتل الفلفل الصدارة لأنه الأرق، غشاء رقيق عذب يغلف كتلة الأرز ويضيف إليها ساعة المضغ عصارة تكسر سكر التسبيكة. أما الكوسة، فلا منافس لها، لأنها

تخاطب في عقلك الباطن قضم قطعة اللحم الذائبة، خصوصًا عندما تقضم حباية الكوسة من الجزء السفلي. قليل من الخشونة في ثمرة الكوسة يمنح الأمر جدية ما. تحتاج حبة الكوسة المحشية بعكس أقرانها إلى مساحة من المضغ، الأمر الذي ينقلك من السيريلاك إلى شهوة الطعام الحقيقية.

على الهامش تدور منافسة خفية بين الباذنجان الأبيض والأسود، يحسمها الأبيض دائمًا بعدما جنح عقب التسوية إلى اللون الرمادي. عندما يتباطأ إيقاع الأكل مع قرب نهاية الطعام ينظر الواحد فيرى حبَّات الباذنجان الأسود في ركن ما خجلى، فيأكلها على سبيل المجاملة.

خسر الأسود المنافسة لأنه استسلم لمرارة الباذنجان الكلاسيكية، بينما كسبها الأبيض لأنه شاكس ولم يستسلم، صحيح أنه لم يحول المرارة إلى حلاوة، لكنه قدَّم ما هو أفضل وأعمق؛ فقد جعلها «لاذعة».

تتجلى حلاوة المحشي، عندما تجاوره الملوخية الخضراء التي يمكن للواحد أن يسقي بها حبَّات الفلفل، ويُخشن اللفت مسار الكوسة، وتظل الفراخ البلدي المحمرة وهي ترافق حبَّات المحشي في طريقها إلى المعدة أفضل نموذج يمكن تقديمه للشراكة الناجحة.

هناك «خفيف الدم» الذي يُلقي بحبَّات المحشي داخل

نصف رغيف بلدي مستمتعًا بساندويتش فريد من نوعه. وهناك «الرومانسية» التي تضيف النعناع الناشف إلى الخلطة فتفتح بابًا خفيًّا للبهجة. وهناك «الحكيم» الذي يُفرغ حبة المحشي من بعض الأرز بحيث ينتصر طعم الخضراوات في النهاية. وهناك «طيب القلب» الذي يخاصم أدوات السفرة في حضرة المحشي ولا يعرف طعمًا للحبة ما لم يضعها بيده في فمه.

يُقدِّم المحشي للواحد مشاعر تشبه مشاعر العودة إلى بيته وحضن أهله بعد سفر، دفء رفع الملابس الصيفي وتنزيل الشتوي، ابتسامة عودة المياه إلى مجاريها مع شخص تحبه فرَّق بينكما سوء تفاهم ما، هو طعم «فيلم الحفيد»، بهجة عزومة قراءة فاتحة ابن خالتك في بيت الخالة، أكلة تهون كثيرًا على شخص طيب بداخلك تهرسه الوقائع والأيام، أكلة تنقل لك رسالة قالها حكيم خواجة ذات يوم مفادها أنه «بعد امتلاء المعدة يبدو كل شيء وكأنه قصيدة».

أحببت الفكرة، لكن المشكلة أن المحشي يُقدِّم رسائل تمتلئ بالأخوة، وهي مرحلة متأخرة في العلاقة يصل إليها الطرفان بعد زواج ثلاثين عامًا، وهي آخر رسالة أتمنى أن أنقلها إلى صافية في هذه المرحلة.

أقف أمام ثلاجات السوبر ماركت الكبير أُفكر في

الموضوع وقد بدأت أتوتر، كان التكييف عاليًا، شعرت ببرودة أتلفت مشاعري، أخرجتني من المزاج الحسن الذي كنت عليه. خرجت ووقفت أمام باب السوبر ماركت أُدخِّن، قلت لنفسي: فلتفكر بالعكس، حدِّد الرسالة التي تود أن تنقلها إلى صافية وبناءً عليها حدِّد المنيو.

الرسالة؟!

أريد أن أقول لها إنها لم تكن يومًا في مجال اهتمامي، إلى أن لمستني حركة المخبوزات بالقرفة لذكائها الذي لا يشبه ذكاء البنات اللواتي يُدرن العلاقات بعقولهن بحثًا عن السيطرة، ولكنه ذكاء عاطفي لا يخلو من زهد.

أريد أن أخبرها أنها تبدو عادية، لكن عندما أُطل داخل روحها أرى معجزات: وسائد ضخمة ناعمة، كنب بيتي مريح، قصاري زرع في شرفة صغيرة، أكواب قصيرة على صينية نحاس إلى جوارها براد شاي أبيض عليه رسومات بدوية باللون الأزرق، الدقائق التي تسبق بداية طابور المدرسة الصباحي، لسعة برد في صباح إجازة يوم ٦ أكتوبر، الغلاف الأصلي لشريط ميادة الحناوي «الحب اللي كان»، موسيقى فيلم «إمبراطورية ميم»، مانتوفلي أبي الكاروه أخضر في أحمر. أصافحها فأشعر بآثار ماء فصوص البرتقال التي جفَّت فوق أصابعها على هامش المذاكرة الشتوية، وأشم معها كثيرًا رائحة الكتب

المدرسية الجديدة يوم استلامها، ورائحة الغسيل وهو إلى جوار أمي تطبقه، وكثيرًا ما أراها إلى جوارها تساعدها في التطبيق.

أريد أن أخبرها أنني أكون معها على طبيعتي، لا أخجل أمامها من أن أُسلِّك أسناني بأي شيء تصل إليه يدي: أطراف علبة السجائر، عود الكبريت، ورقة نقدية جديدة، كيس الفوار. شعرت بالحرج في أول مرَّة تجشأت فيها أمامها، فما كان منها إلا أنها طبطبت على معنوياتي وأزالت عني الحرج بأن تجشأت هي أيضًا بصوت استعراضي، فضحكنا.

أريد أن أخبرها أن ما بداخلي يبدو في لحظة كأنه لا شيء، ثم يبدو في اللحظة التالية وكأنه كل شيء.

فكرت في الأكلة التي تبدو عادية ولكنها ليست كذلك! يشعر الواحد معها أنه على راحته وكأنه يطبق الغسيل مع أمه! أكلة تلمس القلب بدون استعراض! لا شيء لكنها كل شيء!

من مكان بعيد داخل روحي أطلَّت أمي مبتسمة، ترتدي قبعة الطهاة، وتشير نحو مائدة تراصت فوقها أطباق شممت رائحتها فتبدَّد قلقي:

ملوخية خضراء

فراخ بلدي محمرة

أرز بالشعرية

شوربة لسان عصفور

خبز بلدي

تذكرت مقولة: «الأطباق العظيمة بسيطة».

هذه المائدة قد تخبر صافية أننا قادمان من المكان نفسه.

هذه وجبة بيوتنا الأولى: طُرقة الشقة التي اختلطت فيها رائحة الطشة مع رائحة أدخنة التحمير هي مدخل بيت مكافح ومستقر، الأطفال الذين تلقوا أجنحة الدجاجة كهدايا جانبية كبروا وأصبحوا «أهل كرم»، والفتيات اللواتي مُرِّرت إليهن الرقبة كبرن وفتحن بيوتًا دافئة، والمراهق الذي التقط من غطاء الحلة المقلوب الكِبد والقوانص المسلوقة كبر وأصبح هو آخر من يخلد إلى النوم في البيت بعد إغلاق الترباس وتشغيل اللمبة السهاري، والذين أفرطوا في خلط الملوخية والأرز كبروا وأصبحوا فاكهة اللمة، والشخص الذي نجح في ألَّا يفلت قوام الملوخية من لقمة ودن القطة كبر وأصبح شخصًا يمكن الاعتماد عليه، والرومانسيون هم الذين استطعموا صغارًا قرقوشة مفصل فخذ الدجاجة، والأُسر الطيبة هي التي استيقظت بعد هذه الأكلة مخدَّرة الأعصاب على صوت واحد منهم يتغير كل مرَّة يقف في الصالة، بينما

رنين حركة الملعقة بين حواف الأكواب الزجاجية يحرك المشاعر وهو يصيح: «الشاي».

أتمنى أن ترى صافية في هذه الأكلة كل ما أراه بالضبط.

قلت لنفسي: أنا الآن في المكان الخطأ، سأُحضر كل شيء من مكانه. وأخذت طريق السوق.

بائع السوق يضع جزءًا من روحه في الثمار المفروشة أمامه، رضاك عنه مسألة حياة أو موت، أن تهنأ بما اشتريته منه سيعيدك إليه، وهي ثروته فقد أصبح عنده «زبون»، السوبر ماركت لا صاحب له، مجرد موظفين لا يشغلهم ما اخترته، لكن البائعة التي تقلب بضاعتها ثم تختار من أبعد نقطة ربطة ملوخية وتنفضها ثم تتأملها قبل أن تُقدِّمها لك هي واحدة مشغولة بسعادتك، البائع الذي يتراجع في اللحظة الأخيرة عن وضع حبة طماطم بعينها في كفة الميزان ويلقيها بعيدًا لأنها لا ترضيه هو شخص يشعر بالمسؤولية تجاهك، الفرارجي الذي يقف لثوانٍ أمام القفص محاولًا أن يلتقط بنظرة العناية أفضل المتاح هو شخص يتمنى لك الرضا.

كنت أتلفت حولي يمينًا ويسارًا متأملًا الألوان، مستسلمًا لخلطة روائح الثمار، وآثار ندى الصباح الذي رافقها حتى هنا، وبواقي الطين الذي علق في الجذور، وقد اختلطت برائحة الفرن البلدي التي تغطي المكان،

هذه رائحة بخور مقامات الأولياء، شعرت أن السوق يصلح مكانًا للصلاة.

في البيت ألقيت أعواد القرفة مع القرنفل وبعض الزنجبيل وجوزة الطيب في إناء مليء بالماء، وتركته يغلي كثيرًا، كانت الأبخرة المتصاعدة تسحب من الأجواء العصبية والطاقة السلبية المتناثرة هنا أو هناك. مزيج ناعم في تسلله، يقوى تأثيره بـ«بلاي ليست» رائقة كانت تنبعث من إذاعة البرنامج الموسيقي.

وقفت مرتديًا الشورت وفانلة طويلة الكُمين، أحاول أن أحدِّد نقطة البداية.

«المطبخ في قلب البيت دائمًا». تذكرت هذه المقولة وأنا أقف على باب مطبخي أتأمله؛ حجرة تجتمع فيها كل المتناقضات «الحلو، واللاذع، والمُر، والحريف»، هي نسخة من القلب بلا شك. قلت لنفسي: ليته نسخة من «مطبخ ابتسام».

يقوم مطبخ أمي، الشهير في أجواء العائلة بـ«مطبخ ابتسام»، على الهندسة التي درستها أمي لعامين قبل أن تنصرف إلى كلية الحقوق لأنها أسهل، منصرفة منها بعد عامين إلى «بيت أبي» لأنه قدرها.

الدولاب الخشبي مُقسَّم إلى أرفف، تتراص فيه محتوياته بنظام جذاب: رف علب التوابل، رف عبوات

الأرز والمكرونة والفريك، رف زجاجات الزيت وبرطمانات السمن، وفي القاع خزين العدس والفول. تحرص على مسافات آمنة بينها حتى لا يلتقط عنصر رائحة آخر.

هكذا أيضًا يبدو ركن الحِلل، تُخصَّص كل واحدة لنشاط معين حتى تتشبع به جدرانها، حلة الأرز غير حلة سلق اللحوم غير حلة سلق الطيور غير المخصصة لغلي الألبان أو تسوية المحشي.

تحيك طوال الوقت قطعًا ملونة وزاهية من الكروشيه المبطن للإمساك بالأواني الساخنة، تُعلِّقها على الحائط على هيئة سلم صغير. وفي الخلفية ركن تتراص فيه صور نجومها المفضَّلين، تقتطعها من المجلات الفنية وتُثبتها بعجينة النشا بطريقة تجعل الحائط جذابًا ومسليًا ومثيرًا للخيال، كانت ضحكة مديحة كامل تتوسط المشهد، وتشبه المطبخ الذي تحرص صاحبته على نظافته بلا تهاون. لم يحدث أن رأيت شيئًا في الحوض ينتظر الغسيل. «الحوض بيعمل ريحة»، تقولها موجِّهة النصيحة للجميع. كانت تقضي وقتًا طويلًا في المطبخ فأصبح حجرة مكتبها، التي تتحول بعد العصر إلى حجرة كاهن في معبد فرعوني؛ رائحة النظافة مع الرائحة المنبعثة من دماسة الفول التي بدأت عملها على نار هادئة مبكرًا، مع بواقي

رائحة طهي وجبة اليوم، في حماية نافذة نصف مفتوحة تطل منها الطراوة، وإضاءة خافتة تشبه إضاءة غرف النوم، تاركةً الراديو يعمل على درجة صوت منخفضة تبث ونسًا لا يمكن للواحد أن يفسره.

كان عليَّ أن أبدأ بتهذيب «الخرابة» الموجودة في قلب شقتي، أمام الحوض أرتب خطوات طهي القائمة، أحلم أن أقترب من سِحر ابتسام. كبرت وعرفت أن أكل الأم ليس الأجمل كما يعتقد كل واحد، حلاوة أكل الأم لا علاقة لها بجودة الطهي؛ هو الأحلى في الوجدان، لأنه الطعام الذي تفتحت عليه الحواس، الحب الأول. ستظل طوال عمرك واقعًا في غرام أول شخص أطعمك صينية البطاطس، وستظل تفتش عن هذا الطعم الذي سكنك ما حييت، معتقدًا ألَّا أحد في العالم يقدر عليه سوى أمك، وهذا محض خيال.

الجزء الأكبر في حلاوة طعام الأم هو ما يحيط به عند اكتشافه. أنت تأكل مع طبيخ الأم أشياء كثيرة: الزمان، والمكان، والرائحة، والأصوات، والأشخاص، ودرجة الإضاءة. تأكل طعام الأم مختلطًا بمشاعر يتم تخزينها في روحك ولا شيء قادر على استعادتها سوى الطعم الأول، هذا المذاق يتحول إلى مفتاح السعادة ولا علاقة لذلك بدرجة جودته. سيقابلك طعام لا تتجاوز حدود

الاستمتاع به معدتك، لكن مذاق طعام الأم يحرك مناطق مهجورة في روحك، سيدهشك كم هي مزدحمة بالتفاصيل الحلوة.

على الرغم من ذلك يبدو طعام ابتسام هو الأجمل بالنسبة لي، لأنها صاحبة نَفَس، والنَّفَس هو مزيج من الحب والشغف، والحرص على أن تمنح كل تفصيلة حقها. هو الإفراط في الاهتمام، حتى يخرج الطعام وقد اكتسب روح وشخصية من يطهوه. طبيخ تأدية الواجب لا شخصية له، صاحبات النَّفَس هن صاحبات أرواح عظيمة مُحبة ومُخلصة.

كنت أراقب ابتسام صغيرًا، لأعرف كيف تصنع نَفَسها الخاص، هي لا تتبع وصفات جاهزة للتعبير عن مهارتها، لكنها تُدقِّق بإخلاص كبير في كل تفصيلة صغيرة للتعبير عن الحب.

الإخلاص في طهي الأرز يقوم على تحميره فوق نار هادئة حتى يتشرَّب بالسمن، والانتهاء من تحميره عندما تُصدر الحبَّات صوت «الشخللة». ولا يجب الإفراط في تحمير الشعرية حتى لا تصبح مُرة. ولتفادي أن يصبح لونها نشازًا بين حبَّات الأرز البيضاء، لا بد أن تكون الشعرية عصافيري قصيرة، ونسبتها في الأرز واحد إلى ثلاثة، بما يجعلها فاكهة الطبق، ويجب أن تكون لامعة، ويمكن

العثور في طعمها منفردة على سعادة السمن البلدي ولطافة الشوربة النظيفة ووقار ورق اللورا. لا بد من سقاية الأرز بالشوربة الساخنة، وبعد غلوتين تتم تغطيته وتجنب تقليبه داخل الحلة التي يجب اختيارها واسعة حتى يأخذ الأرز راحته وتنتفخ حبَّاته عند النضج دون أن تجد ما يكتمها فيجعلها «تِعَجِّن».

الإخلاص في طهي البامية يقوم على حسن اختيار الثمار، وجودة تقليمها بإزالة الرأس والذيل والحروف الغامقة فتصبح زاهية براقة، مع أهمية فرم الثوم والبصل إلى أقصى درجة نعومة ممكنة، حتى تتشرب الحبَّات الخضراء الصلصة فتحافظ على عصارتها بدون لزوجة. نصف ملعقة سكر أثناء طهي التسبيكة تجلب السحر، وقرن فلفل حامي وملعقة كمون ونصف ليمونة قبل تمام النضج تحول الأمر كله إلى فتنة لن ينجو منها أحد.

الإخلاص في المسقعة أن تقوم بعد تحمير قطع الباذنجان في زيت كثيف على نار عالية، بوضعها في مصفاة، وتُلقي عليها الماء المغلي الذي سيسحب منها نسبة كبيرة من الزيت الذي تشبَّعت به ويُكسبها ليونة ورشاقة.

الإخلاص في المحشي، مراقبته ورفعه من على النار قبل تمام نضجه حتى لا يصبح الأرز بداخله مكتومًا وجافًّا.

الإخلاص في البوفتيك، الصبر على تتبيله وإغراقه في الليمون مع الملح والفلفل الأسود.

الإخلاص في تدميس الفول، هو إضافة ملعقتين من العدس الأصفر.

الإخلاص في المكرونة بالبشاميل هو أن يأخذ الدقيق عند التحمير راحته في السمن والكثير من الزيت حتى يسبح فيه، وإضافة اللبن بالتدريج وبكرم، «البشاميل أبوه اللبن»، ثم ملعقة قشطة في نهاية الأمر مع نطرة جوزة الطيب.

كنت أراقب ابتسام وهي تتذوق كل قليل ما تطهوه. أشعر بالإحباط عندما لا تتغير ملامح وجهها، لكن في اللحظة التي تتذوق فيها شيئًا فتبتسم أشعر بالإثارة، وأعرف أن هناك سعادة ما مقبلة.

ألقيت داخل الماء إلى جوار الدجاجة حبَّات الحبهان وأوراق اللورا وفصوص المستكة، وقلَّبتها جيدًا، وتركتها لتنضج على مهل. فكرت أن أهاتف صافية، لكنني قلت لنفسي: سأترك المشاعر هي أيضًا تنضج حتى موعدنا.

تبدو صافية في صور مراهقتها نحيلة، لكنها وقعت في متاهة الأكل كرَدٍّ فعل أكثر من مرَّة. تحكي أنها عقب وفاة والدها كانت تقوم ليلًا من النوم منقبضة الصدر، يؤلمها أنها لن تستيقظ على صوته صباحًا، كانت تهرب من هذا

الألم إلى طاسة التحمير، تُلقي بداخلها أي شيء موجود داخل حدود المنزل: القرنبيط، الباذنجان، الفراخ البانيه. تطرد بعض أحزانها بتقليب أجسام صلبة صغيرة في الزيت الساخن، وتقضي على ما تبقَّى منها بالنَّهم، تُلقي ما يخرج من الطاسة في أرغفة الفينو، وتأكل حتى يثقل رأسها فتقع في النوم منهكة.

تشبهني صافية في كونها ليست ابنة للعاصمة، تعيش مع عمة لها هنا. كان أَرَقُ شهور الغربة الأولى مستحكمًا، ووجدت الحل في الدليفري. أحبَّت في مستقرها الجديد أن هناك من يحمل لها الطعام بالتلفون، أهلكت عمال توصيل كل مطاعم البيتزا والفطير في المعادي. كانت تجد تسلية ما تؤنسها في الحواف المقرمشة، ورداء الموتزريلا، وسلطة الكرنب المُحلَّى.

حتى وصلت إلى صدمتها العاطفية الأولى، لم يحزنها رحيل شخص أحبَّته، لكن أحزنها سوء اختيارها، شعرت بالخوف من نفسها، وأهلكها تأنيب العقل، سوء الاختيار لا شيء يضمن عدم تكراره، وخطر العماء الذي يصيب المحبين يحوم حول أي تجربة متوقَّعة. كانت تبحث عمَّن يطمئنها، عمَّن يجعلها تحنو على نفسها قليلًا، عمَّن يعلمها أن الواحد يعرف عن نفسه بالخطأ ما لم يكن يعرفه عنها بـ«الشطارة». إلى أن عثرت على ملائكة يتحدثون إليها،

كانوا موجودين في مطبخ العمة. ينقبض صدرها في أي وقت، فتدخل إليهم لتقضي معهم الوقت على هامش قصقصة خيوط الكنافة لتصنع منها صينية بالجبن، أو الاحتفاء بالشوكولاتة وسرقة لمسات منها قبل إضافتها إلى البراونيز والمافنز والكب كيك، أو التسامر أمام زجاج الفرن أثناء تأمل أهلَّة الكرواسون وهي تنتفخ ببطء ويحمر لونها تدريجيًّا.

كانت صافية تعرقل اكتئاباتها دائمًا بالطعام.

يترك الطعام أثرًا فاسدًا عندما يكون التعامل معه بمنطق «رد الفعل». الإفراط فيه هربًا من الأحزان هو تحميل على جسد غير قادر على الهضم أو الامتصاص، جسد في قلة مزاج تجعله يؤجِّل ما يصل إليه في ملفات الدهون. أما مجافاة الطعام كرد فعل تجاه مأساة ما، مأساة أكبر، هي رسالة واضحة للجسد أن يتغذَّى على نفسه، وأن يسحب احتياجاته من «اللحم الحي».

أنهيت كل شيء، حتى وصلت إلى الملوخية.

يتعلَّم الواحد من طبق الملوخية أنه لا يوجد طريق مختصر للنجاح، لا بد من خلطة التعب والإتقان. تأخذ الملوخية من روح من يُعدها. تعلَّمتها بالمراقبة: تقطيع الأوراق لا بد أن يكون من جذر الورقة وليس عشوائيًّا، ولا بد أن تتعرض الأوراق للشمس حتى تجف، ثم تُخرَّط

على سطح خشن، ويجب أن يتوقف الخرط قبل أن تفرز الأوراق مادة مخاطية تعلق بالمخرطة. أما الثوم، فيُسحق بخفة، بشرط ألَّا يتحول إلى عصير، وعند تحميره في قليل من السمن البلدي لا بد أن يضاف فور اكتسابه اللون الذهبي إلى الحلة مع شهقة ترد الملوخية عليها بواحدة أقوى، ثم كبشة من الملوخية في الطاسة تحتضن ما علق بها من الثوم الذهبي بعدها يعود المزيج مرَّة أخرى إلى الحلة. خمنت كثيرًا أن الشهقة مجرد حيلة للفت النظر، حركة تجعل الملوخية تنتبه فيشتد قوامها ولا تسقط في قاع الشوربة.

تصلح زراعة الملوخية في أي تربة، لكنها تحتاج فقط إلى قدرٍ من الدفء، وهذا حقها؛ فهي الأكلة الوحيدة التي تشع دفئًا في كل البيوت المصرية، رائحتها هي الونس الذي يُقرِّب بين سكان البيت في «قعدة التقطيف»، وتمنح جاذبية ما لأمهاتنا وهن يضعن الثوم في حِجر جلاليبهن لتفصيصه.

يصيبني التوتر من أولئك الذين يضيفون الجمبري إلى الملوخية، وأراهم «مُحدَثي نعمة»، أو الذين يطبخونها بالصلصة، وأراهم «مِش وش نعمة». أما من يضيفون الطشة إلى الشوربة وليس إلى الملوخية نفسها فلا طعام لهم؛ لأن الطشة تُفقدها لونها الذهبي المميز الذي يُزيِّن

وجه الطبق الأخضر، وتتحول إلى أجسام بيضاء لا شخصية لها، وتجعل الطبق نموذجًا لأكل المرضى. أما من يعصر نصف ليمونة على طبق الملوخية، فهو شخص أسخف من أن يضعه الواحد في مجال رؤيته.

كان كل شيء جاهزًا. فكرت في الموسيقى التي سأُشغلها، ثم تذكَّرت مقولة أقنعني فيها أن «في العشاء مع الموسيقى إهانة للعازف والطبَّاخ» فتراجعت. فكرت في مدى جودة ما صنعته، تذكَّرت كلام شيف في أحد البرامج عن كون «طبخ أي شخص أفضل كثيرًا مما يظن». تمنَّيت أن تجد صافية على المائدة ما يرضيها، وأن تسأل عن الوصفة فنقضي الوقت نناقشها، ونحاول معًا استكشاف مناطق الجمال، ونفصِّص أثر كل عنصر فيها على حدة. الكلام عن الطعام يبدو أحيانًا أكثر إثارة من الطعام نفسه، مثل أن المرحلة الأكثر متعة وجاذبية في مطاعم الأسماك هي لحظات انتقاء الأسماك نيئة من بين الثلج المهشم، ومناقشة الشيف في أفضل طريقة يمكن تسويتها بها.

حكت لي صافية عن أجمل وأغرب ما تذوَّقته: كانت تداعب مولود شقيقتها الحديث، ورفعته إلى أعلى، وحاولت إضحاكه بادعاء أنها ستأكله، وبينما هو مُعلَّق بيديها في الهواء سال من فم البيبي خيط ريقه الشفاف، وانساب داخل فم صافية المفتوح بالصدفة. تقول صافية

إنه كان طعم الحياة عندما تكون راضية عنك. أسكرتها الدهشة فجلست على أقرب مقعد تحتضن الطفل وتلوك ما استقر في فمها حتى نامت في مكانها.

بينما أُرتِّب المائدة كانت صافية تتصل، قالت إنها أسفل المنزل تجلس في سيارتها لكنها لن تصعد. حاولتُ أن أثنيها عن قرارها وفشلت. قلت: «ماذا عن الطعام الذي أعددته لكِ؟». سألتني عن القائمة فأجبت. طلبت مني أن أُحضر طبقين كبيرين وورق فويل، وأن أضع في كل طبق الأرز وفوقه الملوخية وقطعة دجاج، وأُغلِّفهما، ثم أنزل بهما. وقالت: «لا تنسَ الملاعق، وسنختبر ما صنعته وقوفًا على سور الكورنيش».

قبل أن تُنهي المكالمة طلبت مني أن أزوِّد الملوخية فوق الأرز في طبقها، وأن أختار لها «دبوس» الدجاجة الأكثر تحميرًا، على أن أُحضره بجلده، وتمنَّت لو كانت هناك أي مخللات.

لم تكن لديَّ أي اختيارات، نفَّذت ما قالته، وبينما أُجهِّز لها طبقها بالطريقة التي حدَّدتها كنت أقول لنفسي: هذه هي فتاة أحلامي.

اليوم الثالث

(١)

سأحاول أن أُرتِّب أفكاري قبل مغادرة البيت.

أولًا: هناك حالة وفاة في العمارة، وسيكون من غير اللائق أن يصدر عن شباك أي مطبخ فيها روائح طهي. سيكون السردين المعلَّب هو وجبة غداء اليوم.

ثانيًا: بعد المدرسة سأمرُّ على السنترال لدفع الاشتراك، وبعدها سأمرُّ على مكتب الحاج همام صاحب العمارة لاستلام إيصال الإيجار الشهري.

ثالثًا: عند العودة من المدرسة لن يكون هناك أحد في البيت، سيخرج أبي من عمله إلى عزاء شقيق أم سمير. ممنوع تشغيل التلفزيون حدادًا على المتوفَّى، ممنوع رفع كسوة الجهاز قبل ثلاثة أيام.

رابعًا: سيمر خالي في السابعة ليصطحبني أولًا لشراء هدية عيد ميلاد حمادة عادل، بعدها سنتوجه إلى بيته، وسيتركني هناك، مسموح لي بقضاء ساعة واحدة فقط ثم العودة إلى البيت قبل التاسعة، وقد أجد في احتفالية عيد الميلاد ما قد يعوضني عن السردين.

خامسًا: الفترة من الثالثة عصرًا (موعد العودة إلى البيت) حتى السابعة (موعد وصول الخال) يجب أن أقضيها في المذاكرة والاستعداد لاختبار الرياضيات التجريبي المقرر عقده غدًا.

أبدت أمي استياءها من المنظر الذي وجدت عليه مطبخها عندما عادت متأخرة بالأمس، لكنها عبَّرت عن سعادتها لتحمُّلي مسؤولية إطعام الأب. وهددتني جدتي أنهم سيعرفون إذا قمت بتشغيل التلفزيون وأنا لوحدي في البيت. وسلَّمني أبي ظرفًا مغلقًا مكتوبًا عليه رقم تلفون المنزل واسمه الثلاثي كمشترك، وطلب مني التأكد عند استلام إيصال الإيجار الشهري أنه إيصال شهر يناير.

كانت بداية اليوم مشحونة للغاية، تقبَّلت كل الأوامر والتوجيهات بابتسامة، وفي ذهني حفل محمد منير، لكن كان أسوأ ما حدث هو أنني تأخرت على موعد خروج سحر من منزلها، كنت أهرول حتى ألحق بها، وخُيِّل إليَّ أنني لمحت طيفها بينما باب مدرستها الضخم يتم إغلاقه.

(٢)

كان منطقيًّا أن يتغيب حمادة عادل عن الحضور إلى المدرسة اليوم، لا بد أنه مشغول بترتيبات حفل عيد ميلاده. كنت أُفكر في الهدية التي سأُحضرها له.

حمادة «ابن ذوات»، منحه مدرس الرياضيات هذا اللقب، لا لأنه ينتمي إلى عائلة صاحبة أملاك، ولكن لأنه كان أول طالب يأتي إلى المدرسة وفي حوزته آلة حاسبة. كان هو أيضًا أول من ارتدى ساعة رقمية قال إنها ضد الماء وفتح عليها صنبور حمّام المدرسة أمامنا، وكانت معجزة.

ظهر في شوارع المدينة الصيف الماضي وهو يقود موتوسيكلًا كهربائيًّا ببدال قبل أن تسحبه منه والدته لأنها عرفت أنه كان يتركنا نجربه، وخافت أن يتسبب أحدنا في مصيبة سيتحملها صاحب الموتوسيكل منفردًا. عنده جهاز أتاري، وكمٌّ هائل من ديسكات الألعاب، وجهاز فيديو، ومكتبة شرائط بها أعاجيب مباريات المصارعة الحريمي ومصارعة الأقزام، وكاسيت باناسونيك ستريو ببابين يسمح له بنسخ الشرائط وعمل كوكتيلات مبهرة. عنده نظارة شمسية، طلب منه مدرس العربي استعارتها يومين ولم يُعدها إليه إلا بعد أن حضر والد حمادة شاكيًا. ولا يجلس في بيته مثلنا مرتديًا بيجاما كستور مقلمة،

قلم بنفسجي وقلم أخضر، لكنه يرتدي دائمًا ترينج «أسكوت» (ASCOT)، وبينما نلعب جميعًا في حصة الألعاب بالحذاء القماشي الأبيض كان هو يرتدي فوتبول حقيقيًّا بنعل، كان جميع مَن في الفصل يمررونه بينهم بعد انتهاء الحصة لتأمُّل نعله المدبب. عنده كرة قدم «mikasa» أصلية كان من المستحيل أن يتحمل الواحد ألم تسديدها بسن القدم. عنده دراجة رالي ملونة مزوَّدة بناقل للسرعات، وحقيبة سمسونايت بأرقام سرية، وكان الوحيد الذي يحضر معه إلى المدرسة حبَّات الفاكهة، ولا أحد غيره يستخدم قلم رصاص بسنون. الجاكيت الوحيد في المدينة ذو الكُمَّين اللذين يمكن نزعهما وإعادة تركيبهما بسوستتين مبطنتين كان عنده. ولديه صورة من فرح أحد أقاربه في القاهرة يقف فيها إلى جوار إيمان البحر درويش؛ أبهرت الجميع، لكنني لم أنبهر إلا بصورته أمام أبو الهول فوق جمل ضاحك.

ما الذي يمكنني شراؤه كهدية لشخص عنده كل شيء؟

أُحب حمادة لأن كل هذا لم يُفسده. هو كريم، وطيب القلب، ويمكن الاعتماد عليه، ولم يخذلنا في مرَّة انتظرناه فيها أن ينزل من بيته إلى الملعب بالكرة الأصلية، سمح للمقرَّبين كلهم بتجربة الدراجة والفوتبول والآلة الحاسبة، اقتسم معنا كثيرًا فاكهته، وأعارنا شرائط كاسيت كان يعرف

أنها لن ترجع إليه، ولم يتعرف أحد من شلتنا على طريقة الإمساك بعصا الأتاري إلا من خلاله، إلا إنه لم يصبح صديقًا مقربًا لي إلا بعد أن استقر بيننا سِرٌّ قبل ثلاث سنوات بينما نودِّع معًا ملاعب الطفولة.

قابلته عصر ذات يوم مصادفة في الشارع، صافحته وقبَّلته، قلت له: «ريحتك قِرفة». أثارت ملاحظتي قلقه، وأخذ يتشمم نفسه كثيرًا، كان واضحًا أنه على باب مشكلة لم أعرفها، وسألني ما العمل؟ وكيف يمكن علاج الأمر؟ لأنه «مش هينفع أرجع البيت كده».

تلفتُّ حولي بحثًا عن حل، رأيت محل عم مجدي الحلاق، طلبت منه أن يجلس على الرصيف المقابل له ويتمارض، دخلت إلى عم مجدي طالبًا منه أن يُفرغ في يدي قليلًا من كولونيا الليمون لأن حمادة وقع ورأسه «بيجيب دم»، لم يتأخر الرجل وخرج خلفي بالزجاجة، يصب في يدي وأنا أمسح وجه حمادة الذي كان يحاول أن يكتم ضحكته، ثم انفجر عندما تأمل عم مجدي رأسه واكتشف الأمر فصاح فيه: «مفيش دم يا حمادة.. مفيش دم»، ليسحب بعدها زجاجته عائدًا إلى المحل وهو يواسي نفسه: «عيال وسخة».

ائتمنني حمادة على السر، وفي عصر اليوم التالي كنا نقف أنا وهو أمام «أم رحاب».

(٣)

جد حمادة (والد أبيه) يمتلك بيتًا قديمًا من طابقين، حوَّل الطابق الثاني إلى مخزن لكراكيب العائلة، وأجَّر الطابق الأول لرجل تفانى في خدمته طويلًا لكن المرض أقعده، وسمح له بعقد الإيجار أن يعيش في نصف المساحة ويحوِّل البقية إلى دكان عطارة ينفق منه على أسرته. كانت أم رحاب زوجة الرجل تدير الدكان الذي ارتبط به أهل المدينة؛ حبًّا في نظافة وأمانة مديرته، وجودة بضائعها.

قرر فجأة علاء (عم حمادة) أن هذا البيت هو نصيبه في الميراث، وضغط على أبو رحاب لكي يطلب هو بنفسه من الجد أن يرحل عن المكان. كان الجد سيرفض لو طلب العم، وكان العم يريد أن يهدم البيت ليُقيم مكانه مشروع مركز تجاري.

ضغط العم علاء على أبو رحاب كثيرًا لينفذ ما طلبه منه، هدَّده بأن الجد سيطرده يومًا ما، وإن لم يكن هو، فورثته، وعليه أن يبحث عن بديل من هذه اللحظة.

غرق الرجل في الحيرة والتفكير، وفي الوقت نفسه كان صبر العم قد نفد. وفي إحدى المرَّات انفعل بشدة واعتبر أبو رحاب متواطئًا، فصفعه أمام زوجته.

عرفت ابنتهم التي تزوجت وانتقلت للعيش في مدينة

قريبة كل ما جرى، وفوجئ بها الجد تطرق بابه في السابعة صباحًا.

أصابت الجد غصة مؤلمة، عنَّف العم وقال له: «لا شيء لك عندي ما لم تعتذر للرجل وتُقبِّل رأسه». انزعج العم من فكرة تقبيل رأس الرجل الذي اعتاد أن يراه خادمًا لأسرته. أصاب الجدَّ شيءٌ من حدة العم، قال للجد: «أنت ظالم». كان العم يرى نفسه صاحب حق، فصاح وشتم وهدَّد ثم قرر أن يترك المدينة. سافر إلى الإسكندرية، وأقام هناك مُخلفًا لوعة كبيرة في قلب الجد.

قرر الجد أن يذهب بنفسه لتطييب خاطر الرجل الذي أُهين أمام زوجته، وأصبح يشعر أنه مهدَّد في سكنه ولقمة عيشه. ولكي يكسر خجله من كل ما حدث اصطحب معه حفيده حمادة، قال إن وجوده سيخفف توتره، وجود الطفل سيبرهن على حسن نواياه.

كان الجد يجلس مع أبو رحاب محاولًا إصلاح ما أفسده العم.

كانت أم رحاب ترى هذا الرجل، صاحب الفضل، ذا الهيبة، وهو يتعثر في كلماته، فقررت أن تزيح ما تقدر عليه من الشعور بالحرج. سحبت حمادة من يده وخرجت به إلى المحل، أعدت له مشروبًا سَحَر قلبه. في اليوم التالي امتلك جرأة أن يذهب إليها طالبًا واحدًا آخر. قابلتُه في

هذا اليوم، وكان يخاف أن تعرف أمه فوعدته أن يظل سرًّا، ولكي يورطني معه كنا في اليوم الثالث نقف معًا نراقب أم رحاب وهي تُعدُّ هذا المشروب.

كنكة كبيرة مليئة بالماء فوق وابور الجاز، ألقت أم رحاب داخلها ملعقتين كبيرتينِ من القرفة، ثم أضافت بعد قليل ملعقة عسل أسود، ثم وضعت الكنكة جانبًا، دفنت يدها في جوال السمسم، ثم أفرغت قبضتها الممتلئة في الكنكة وقلَّبت المزيج وصبَّت لكل واحد كوبًا.

كان المشروب حلوًا ولاذعًا وبه مذاق حريف، وكانت حبَّات السمسم مسلية ومبهجة. فاتنة تلك الرشفة التي تنتهي بشيء قابل للمضغ السهل اللين. كان المزيج جديدًا على المشاعر، وجعلتني طقطقة حبَّات السمسم أنظر إلى حمادة وأبتسم. تلاقت أعيننا فضحكنا ببلاهة وبصوت عالٍ، وكانت السعادة أكبر من كل الذي اختبرته من قبل.

بعد يومين شب حريق كبير في البيت قضى على كل ما فيه. عرفت المدينة كلها القصة من أولها، وانتشر الكلام عن أن العم الهارب هو الذي حرَّض على النار. نقل الجد أم رحاب وزوجها إلى بيت على أطراف المدينة، وكلَّف أحدهم بإصلاح المنزل.

يقول حمادة إنه لم يرَ جده غارقًا في الحزن مثل تلك

الأيام الثلاثة التي قضاها في غرفته صامتًا عازفًا عن الطعام والكلام؛ لم يكن حريق البيت الذي يؤلم الجد، ولكن حريق القلب.

ابنٌ عاق ومجرم وهارب، أصغر أبنائه، الذي أفرط في تدليله والحنو عليه، قطعة غالية من جسده أُصيبت بتسمُّم ما، ففسدت ثم سقطت عن جسده. ظل الجد يمضغ أحزانه حتى مات في اليوم الثالث.

بعد دفن الجد بيومين وصل العم من الإسكندرية في سيارة إسعاف، كان في انهيار تام، كان يسقط مغشيًا عليه كل خمس دقائق ثم يفيق فيغرق في النحيب. يقول إنه قتل أبيه، ويلطم وجهه بقسوة حتى يفقد وعيه من جديد، لم يتحمَّل كثيرًا ومات بعد يومين.

في الطريق إلى المدافن خارج المدينة، تسمَّر نعش العم وثقل على حامليه، رفض أن يتحرك من مكانه، صاح فيه المشيعون: «صلِّ على النبي.. لا إله إلا الله». لكنه ظل صامدًا وثقله يزداد حتى كادت الأكتاف أن تنخلع.

سيطر الصمت والحيرة إلى أن انفتح باب المنزل الذي تيبَّس أمامه النعش. كان بيت أم رحاب الجديد، وكانت تقف على الباب وقد تعلَّق زوجها في يدها. هتف الزوج مخاطبًا النعش: «مسامحينك يا علاء.. مسامحينك».

كررت أم رحاب خطاب زوجها، ثم وضعت يدها على

صدرها وأبعدتها عاليًا مع صرخة هزت المكان؛ صرخة نحيب موجعة وصادقة حرَّكت قلوب المشيعين، بل إنها حركت النعش نفسه.

(٤)

يمكن اعتبار هذه اللحظة على رأس قائمة اللحظات المفضَّلة في الحياة.

أنا بمفردي في الشقة.

أول ما فعلته عند وصولي هو إشعال عود بخور صندل جمَّلت رائحته وحدتي.

فشلت ليمونة كاملة مع الكمون والشطة في القضاء على زفارة السردين. أنا لست من المغرمين بالسمك أصلًا، فما بالك به وهو بارد ويغلب على طعمه مذاق معدني؟ زيارة الحاج همام لاستلام وصل الإيجار أفسدت شهيتي أصلًا. كان يجلس مع اثنين مع معاونيه في مكتب المقاولات، وفوق ورقة جرنال ثمة طواجن، كانوا يأكلون بنهم، ودعاني الحاج للطعام، قال لي بنبرة إغواء: «عكاوي». قلت له: «لا أفهم». فوضَّح أن العكاوي هي «ذيل البهيمة»، ثم قال: «الديل اللي ورا،

بناكله علشان الديل اللي قدام»، ثم غرق هو ومَن معه في ضحك فاحش.

فتحت الثلاجة فوجدت وجبة أفضل، ساندويتشات الجبن الرومي في العيش الفينو التي يمكن وضعها لدقائق في «التوستر» فيسيح الجبن ويتدلل دلالًا تليق به القرمشة مع كوب شاي باللبن دافئ يمنح المزيج كله حلاوة ما. كنت أراقب اللبن فوق النار، وتأملت التوستر الذي أحضره لنا عمو الحسيني هدية، وكان الأول من نوعه من المدينة، وكان أبي كلما واجهته سخافة ما من شقيقه يقول إنه سيُعيد إليه التوستر ويُغلق صفحته إلى الأبد، ولم يحدث.

كنت أتأمل التلفزيون بينما أتناول وجبتي، رقص الشيطان يغريني بإلقاء نظرة على ما يُعرض الآن، لم أهتم، ما يعرضه التلفزيون في هذا الوقت لا يهمني، كما أنني لست من المُعلَّقة قلوبهم به، أنا أُشبه أمي في حب الراديو، هذا الجهاز الصغير كله خيال. سمعت ضيفًا في برنامج «ع الناصية» ذات يوم يقول الجملة التي أشعلت خيالي، قال: «صورة الراديو أحلى ١٠٠ مرة من صورة التلفزيون». أنتظر كل ثلاثاء وخميس السادسة مساء عندما تتحسن جودة الاستقبال ويلتقط الجهاز إرسال إذاعة عربية تُبث من باريس، وأسحب راديو المطبخ

إلى غرفتي للاستماع إلى مذيعة لبنانية اسمها «هيام»، تذيع في برنامجها أغنيات نادرًا ما نصادفها عندنا في إذاعتنا المحلية أو على شرائط الكاسيت مثل: «صغيرة كنت وانت صغيرون»، و«حلف القمر»، و«ما حدا بيعبي مطرحك بقلبي». كانت مشكلتي الوحيدة أنني أنسى دائمًا أن أُعيد الراديو إلى مكانه في المطبخ، وكانت أمي تمسح بكرامتي بلاط الغرفة كل مرَّة.

وقعت في غرام اللبنانية ذات الصوت الذي يزدحم بالمرح والرقة، أقمت علاقة عاطفية مع مجرد صوت، وكثيرًا ما حاولت أن أجمع بين صوت «هيام» وصورة «روزيتا» في شخصية واحدة تشاركني لحظات الخيال، لكن «روزيتا» الفاجرة كانت تختار دائمًا التهامي في صمت.

اعتادت «هيام» أن تذيع في نهاية كل حلقة عنوان المحطة لتلقي طلبات الأغاني، كتبت لها ولم أطلب أغنية، لكنني طلبت منها أن تصف لنا ملامحها على الهواء. أرهقتني محاولات تخيُّل شكلها، تلك الساحرة التي أصبحت جزءًا من حياتي. ولم أجد ما أقوله بعد ذلك، فذيلت الخطاب بإبداء رغبتي في أن أكون صديق البرنامج. مرت شهور وأنا أنتظر تعليقها، ويبدو أن الرسالة ضاعت، وهو ما أسعدني لأنني لم أحب ما فعلته؛ كان

تصرف مراهق بائس في مدينة نائية، وكلما تذكرته كنت أشعر بتعاسة ما.

أحاول أن أحافظ على رضا أبي طمعًا في السماح لي بحضور الحفل: أطعمته بالأمس، ولن أشغل التلفزيون، وأنجزت المهمة التي طلبها مني بنجاح. تذكَّرت الإيصالات التي أحملها، فقمت لأضعها على رف دولابه، وهناك وجدت علبة سجائره.

السؤال المطروح حاليًّا هو: كيف يمكن إنجاز المهمة في سلام؟

سرقت واحدة من علبة خالي في إجازة الصيف، دخَّنتها مع حمادة في مدخل عمارة مهجورة خلف فرن الخبز البلدي، ثم اتجهنا إلى النادي، وهناك استهلكنا صابونة كاملة لإزالة الرائحة، وبعدها مضغنا أكثر من خمس عبوات من لبان «كوكو واوا»، وكانت تجربة غريبة، أسعدنا الخدر الذي سرى في عروقنا لفترة، لكن المغامرة المسروقة أسعدتنا بصورة أكبر.

حسنًا.

سأُدخِّنها في الحمَّام، سأفتح دش الماء الساخن وأترك البخار يتصاعد حتى يلتهم دخان السيجارة، ثم أطرد المزيج عبر شباك المنور الصغير بتشغيل المروحة، سأُشعل بعدها البخور وأتحمم، وسيمر الأمر بسلام.

ما زال هناك متسع من الوقت قبل أن يصل أحد إلى المنزل، ستكون آثار التدخين اختفت، وما يتبقى منه سيتم اعتباره من مخلفات تدخين أبي.

كانت هناك ثغرة وحيدة في هذه الخطة، وهي أن أبي لا يُدخِّن في الحمَّام بأمر من جدتي.

تذكَّرت هذه الثغرة عندما وصل أبي قبل السابعة لتغيير ملابسه قبل أن يغادر مرَّة أخرى لتأدية واجب العزاء. لم يكن هذا ما اتفقنا عليه، دخل إلى الحمَّام وأغلق الباب، وانخلع قلبي عندما فتحه بعد ثوانٍ صائحًا: «عبد الله».

خليط الحيرة والغضب الذي ظهر على وجه أبي رأيته من قبل، عندما سألني عمو الحسيني في زيارة لنا عما أريد أن أكونه عندما أكبر، فقلت: «مطرب». ضحك الجميع ما عدا أبي، وكانت خيبة الأمل بادية عليه. بعد انتهاء الزيارة سحب الأب مني الكاسيت وعلبة الشرائط. أعادهم لي بضغط من جدتي بعد أسبوع، وقبلها كان قد حصل مني على وعد بأن أنسى موضوع المطرب إلى الأبد، قائلًا: «ربنا خلق الغنا للستات بس، الراجل اللي يغني ده راجل تافه». قلت له: «أعرف أنك تحب عبد الحليم حافظ». قال: «كنت أُحبه لأنه يتيم».

شعرت بشيء آخر غير الخوف وأنا أنظر إلى أبي، كان الخوف قد وصل إلى ذروته حتى انكسر بداخلي. قبل

عامين شب ليلًا حريق هائل في محل عمر أفندي، دمره تمامًا، ولقي الخفير حتفه بعد أن أكلته النيران، بعدها بأيام كنت عائدًا من المدرسة، وسمعت شخصًا خلفي يسألني: «لو سمحت هوَّ عمر أفندي من فين؟». التفتُّ قائلًا إنه في نهاية الشارع لكنه احترق، فوجدت سائلي شخصًا يرتدي جلبابًا وقد تلفَّح بشال صوف متآكل يُطل منه وجهه، وكان وجهًا ذوَّبت النيران ملامحه. شعرت بالذعر وهرولت بأقصى سرعتي، وكُلي يقين أنه شبح الخفير الذي التهمته النيران، وأن روحه تائهة وتريد العودة إلى عمر أفندي.

«إنت بتشرب سجاير؟».

سألني أبي ولم يكن بحاجة إلى إجابة.

قال: «عايز تشرب سجاير اشرب برَّه البيت، أمك عيانة ولو عرفت هتطب ساكتة».

شعر أبي بالخوف على الشيء الذي لا يمكن تعويضه.

الجميع يُدخِّنون، فليتحمل كل شخص مسؤولية نفسه، لكن فراق الأحبة لعنة جرَّبها أبي من قبل في عُمر السادسة، ولن يتحملها مجددًا.

كنت أقف أمام رجل واقع في غرام نادرًا ما يبديه.

كان لساني ثقيلًا، وكان فشل العثور على كلمات مناسبة عظيمًا، وأنقذني وصول الخال.

(٥)

أخرج خالي من جيبه أربع تذاكر لحفل منير، حصل عليها من صديقه المقرَّب رئيس اتحاد طلبة الكلية التي تنظم الحدث، أصابني مشهد التذاكر بتوتر أربك معدتي.

حكيت لخالي ما حدث، أبديت دهشتي من أن الأب لم يضربني. قال خالي: «أبوك بيضرب بالجملة، لن يتكبد عناء الضرب على خطأ واحد، هو يدخر الأخطاء ليكون العقاب مرَّة واحدة».

سألته إن كانت فرصة حضور الحفل قد ضاعت. قال: «بقي يومان عليك أن تمحو خلالهما آثار جريمتك». ثم سألني: «هوَّ إنت عايز تحضر الحفلة ليه؟».

قلت له: «الدائرة التي أعيش مسجونًا فيها أصبحت قاتلة. نهاية كل يوم أقول لنفسي: لقد عشت هذا اليوم من قبل. لا أحب السجائر، لكن لا شيء جديد من حولي يمكنني أن أختبر معه مشاعر جديدة، محبة أو كراهية. أشياء قليلة لها مذاق في حياتي: الطعام، وأنت، ولحظات عابرة في البيت الذي أسكنه. هل تعرف أنني قد فكرت يومًا في الهروب من البيت؟ جمعت كل أموال العيديات التي أدخرها، وضعتها في جيبي، وذات صباح بدلًا من أن أتوجَّه إلى المدرسة توجَّهت إلى محطة الأتوبيس الذي

يتحرك كل يوم إلى القاهرة، قطعت تذكرة وجلست في المقعد الخلفي، وقبل أن يغادر الأتوبيس نزلت، لكنني كنت اختبرت إثارة ما، وقفت على باب المغامرة وشممت رائحتها، واكتفيت لأنني شعرت بالخوف. حضور الحفل قد يصل بي إلى ما هو أبعد من ذلك، سيصبح على الأقل لديَّ شيء يمكنني أن أحكيه للآخرين، خيال سأُطوِّره كل يوم وأنا أتقلب في فراشي قبل النوم».

كان خالي يسمعني باهتمام، وقال إنه وعدني ألَّا يتخلى عني، وسيحاول أن يفعل، ثم سألني عن الهدية التي سنشتريها لحمادة، وما هي الميزانية المتاحة.

نظرت إليه مبتسمًا. فهم ما يدور في رأسي، وقال لي: «انسى».

قلت له: «ستكون هدية مميزة، وحمادة يستحقها».

فكر قليلًا، ثم سحبني من كتفي وعرجنا على إحدى المكتبات.

اشترينا ظرفًا أبيض، وكارتًا ملوَّنًا كتبت فيه: «سنة حلوة زيك يا حمادة»، ثم وضع خالي يده في جيبه وأعطاني تذكرة للحفل من الأربع التي يحملها، وضعتها في الظرف وبللت طرفه بلساني ثم أغلقته، وكُلي ثقة أن حمادة لن ينام الليلة من الفرحة.

(٦)

«ادخل بص على أمك في أوضتها علشان تعبانة شوية».

أرهق مشوار العزاء أمي، كانت تجلس في فراشها ورائحتها ينسون. سألتني عن عيد الميلاد، حكيت لها أنه كان محدودًا. سألتني عما أكلت هناك، أخبرتها عن ساندويتشات الكفتة المشوية بالطحينة والطماطم المتبلة التي أعجبتني، بينما لم أستطعم الكبدة المحمرة، ولم تكن هناك أي حلويات. سألتني إن كنا شغلنا أغاني، قلت لها إن طنط سهير والدة حمادة نبَّهت عليه ألَّا يفعلها. قالت الأم: «الجد والعم الصغير ورا بعض، كسرة نِفس عمرها طويل، كويس إنهم عملوا عيد ميلاد». نظرة أمي إلى الأحزان القديمة التي تسكن جنبات بيت حمادة فسَّرت لي غياب التورتة، كما فسَّرت حدة وانفعال عمو عادل والد حمادة عندما دخل البيت وامتقع وجهه أمام رصة زجاجات السبورت كولا والكراش، وسمعنا صوته قادمًا من غرفته وهو يصيح: «ساقع؟ ساقع يا سهير؟ كده برضه؟».

سألتني عما اشتريناه أنا وخالي كهدية، فقلت لها الحقيقة. طلبت مني أن «قول لأبوك هيتبسط، شكله فيه حاجة معكنناه»، ثم طلبت مني أن «ناولني شريط الريفو واقفل النور».

كان أبي يجلس في الصالة يتصفح عددًا من مجلة «المصور». مددت يدي في جيبي وأخرجت له النقود التي منحني إياها لشراء هدية عيد الميلاد، وحكيت له ما حدث، وكيف كانت هديتي حديث عيد الميلاد، واعتراف حمادة أمام جميع المدعوين أنه ربما لن يسمح له والده بحضور الحفل، لكن التذكرة كانت أحلى هدية تلقَّاها اليوم. لمحت نظرة إعجاب في عينَي أبي، لكنه سرعان ما أخفاها وعاد إلى المجلة.

كنت أحاول أن أقاوم النوم مرهقًا وصدري يؤلمني. يُدخِّن أبي سجائر حامية، أجمل ما فيها المثلثات الحمراء التي تكسو علبتها عندما تطل من جيب قميص أبي الصيفي. حاولت أن أرتِّب برنامج عمل الغد، لكن النوم قال كلمته.

حلمت بمحمد منير على المسرح يدعوني للغناء معه، تقدمت وشاركته غناء «الليلة يا سمرا». كان أبي يجلس في الصف الأول، وقف فجأة وطلب مني أن أغادر المسرح، تدخَّل منير، كان منفعلًا وأثناء كلامه وضع يده فوق كتف أبي، ارتبكت معدتي وشعرت أن في هذه الحركة إهانة لأبي، دفعت منير بعيدًا، وسحبت أبي من يده منصرفين، لكن لم تكن هناك أي أبواب يمكن الخروج منها.

القاهرة (٢٠٠٩)

(١)

بخصوص العلاقات العاطفية، أبدو ساحرًا في البدايات، ساحرًا بمعنى الكلمة: أظهر في الأوقات التي أمر بها في خيال من أعرفها بدون سابق ترتيب، أُهديها ما تحلم به ولم تخبرني عنه، أقول لها ما تود أن تسمعه بالضبط في أنسب وقت. أكون خشنًا في الوقت الذي لن تنجح فيه العلاقة إلا بقدر من الخشونة في هذه اللحظة بالذات، ثم أختفي عندما تكون العلاقة على المحك.

حينما تصبح العلاقة واقعًا شديد الوثاق لا مفر منها، يبدأ انهياري ببطء، أخفت وأخبو، ولا أصبح قادرًا على المزيد، أسأل نفسي: هل أنا واقع في الحب بالفعل، ولا أجد إجابة. قاعة كبيرة مليئة بالأنوار الزاهية تنطفئ

تدريجيًّا، صفًّا تلو الآخر، حتى يعم الظلام، ثم تخرج الفتاة رازعةً الباب خلفها.

لم يؤلمني يومًا انصراف إحداهن؛ كنت أستمتع بإثارة البحث عن بداية جديدة.

لكن غياب صافية كان مزعجًا.

أنا طفل وحيد، اعتدت منذ سن العاشرة على أن أعيش بمفردي، ولو في حدود غرفة داخل شقة، تزعجني منذ هذه السن الزيارات الطويلة. كلما دخل أحد إلى غرفتي أقف وأظل واقفًا حتى لا يشعر ضيفي بالراحة فتطول جلسته. أرتاح إلى وحدتي، ويعجبني أن أكون خفيفًا إن نمت أو استيقظت، إن فرحت أو بكيت. ترهقني المسؤولية الإنسانية، وعلى بالي دائمًا الصحابي الذي قِيل له: «تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك»، وأراها الصيغة المثلى لتجربة الحياة. وهذا ليس ضد الوقوع في الحب، أكون في أفضل حالاتي عندما يمر بي، لكنني أُحب نفسي أكثر. لست أنانيًّا على الإطلاق، أستطيع أن أتفانى في خدمة العالم لكنني لا أطيق نفسي في سجن شخص بعينه. أُفسد قصص الحب دائمًا لأُنقذ شخصًا يجد راحته في التجول داخل بيته عاريًا.

حصلت صافية على إجازة مفتوحة من العمل. قالوا مريضة، وكان هاتفها مغلقًا طوال الوقت، جربت الاتصال

به ليل نهار دون فائدة. تجولت كثيرًا في شوارع المعادي سيرًا على الأقدام، أُمنِّي نفسي بصدفة اللقاء. واكتشفت كم كنت أنانيًّا؛ كنت مشغولًا بنفسي خلال العام السابق لدرجة أنني لم أُفكر ولو على سبيل الفضول أن أعرف عنوان البيت الذي تقيم فيه، لم أُفكر ولو على سبيل شعور المراهقين العاشقين بالمسؤولية أن أسير خلفها بسيارتي عقب عشاءات العمل المتأخرة للاطمئنان على وصولها.

أين اختفى الكلام ونحن كنا في «عز الكلام»؟ أراني الآن في المأساة نفسها التي أشبعتُ عبد الحليم حافظ سخرية بسببها، «ماسك الهوا بإيديا»، كانت الأغنية تُعيد نفسها بينما أراني أجلس إلى جوار أبي وحليم أسفل شجرة عملاقة في فناء دار أيتام.

كنت في بداية الأمر متماسكًا، أقول لنفسي: أفتقدها. ثم تدهورت حالتي بالوقت: أستيقظ كل ربع ساعة ليلًا وأُجرِّب الاتصال بها، أبتلع الطعام بصعوبة إلى أن عجزت عن ذلك تمامًا وصرف لي الطبيب حبوب «الزانكس» ليسترخي حلقي، قرصتني الوحدة لأول مرَّة ولم أجد من أشكو له سوى جهاز التكييف، ألقيت عليه السلام وشكوت حالي، إلى أن استيقظت ذات ليلة فوجدتني أقف عند نقطة مخيفة وأسأل نفسي: هل فقدت موهبتي؟

(٢)

نزلة برد أطفأت الجسد وأنهكته، وبحثًا عن لحظة انتعاش تُحرِّر الروح من ثقل المرض أمسكت بزجاجة الكولونيا، وصببت منها في كفي كمية تكفي لغسل رأسي ووجهي والنقطة التي يلتقي فيها عنقي مع كتفي حيث يوجد مركز قيادة آلام البرد. وما إن انتهيت من دعك وجهي حتى أخذت نفسًا عميقًا آملًا أن تفتح رائحة الليمون مسام الصدر المحتقنة، لكنني لم أشم شيئًا.

شعرت بغصة، هرولت مسرعًا إلى المطبخ بحثًا عن علبة البُن، تعلمت هذه الحيلة من زيارة محلات العطور: عندما يتنقل الواحد بين أكثر من عطر بحثًا عما يناسبه يفقد قدرته على التمييز بعد قليل، تحتفظ محلات العطور الراقية بعلبة بُن تُقدِّمها إلى الزبون ليستنشق رائحتها بعدها تستعيد حاسة الشم مهارتها.

فتشت داخل المطبخ عن علبة البُن، كنت قد عبأتها قبل أيام بربع كيلو جرام من البُن الغامق الذي أشرفت على إعداده بنفسي. لا أزور محلات البُن كرجل يطلب كيسًا ليعود به إلى منزله، محلات البُن فرصة للاستشفاء بالنسبة لشخص يتعبد بالرائحة.

فتحت علبة البُن ودفنت أنفي بداخلها، استنشقت

بضمير ثم عدت إلى رف زجاجات العطور في غرفتي، ولكن لا رائحة.

حاسة الشم مجرد حزمة أعصاب داخل المخ، ويبدو أنني قد أتلفتها تمامًا من فرط سخونة الأفكار في رأسي.

مر يومان وأنا أُجرِّب كل شيء، أحرقت بخورًا من النوع الغالي ولكن لا نتيجة، جرَّبت الروائح التي أكرهها، فأشعلت أعواد الكبريت ثم أطفأتها سريعًا واستنشقت الدخان المتصاعد بلا فائدة.

فقدت موهبة الشم، وسينتقل الأمر سريعًا إلى القدرة على التذوق والاستطعام.

كانت المنافسة محتدمة بين فزع اختفاء الرائحة، ولوعة اختفاء صافية.

تذكَّرت فيلمًا شاهدته منذ فترة، وكيف أفسدت الرائحة مصير بطله. كان البطل صانع العطور موهوبًا، يمتلك قدرة غير طبيعية على التقاط الروائح من خلف الجدران، بل من المستقبل، كان قادرًا على شم رائحة الضيوف قبل أن ينتصف بهم الطريق، ثم جن جنونه عندما اكتشف أنه غير قادر على أن يشم لنفسه رائحة. أحزنه أنه هو شخصيًّا بلا رائحة، فتحوَّل إلى سفاح، وقتل عشرات الحسناوات ليصنع من جلودهن عطرًا لنفسه. كان العطر فاتنًا، وعندما نثره فوق نفسه وهو

يقف في منتصف إحدى الأسواق الشعبية انجذب إليه الفقراء والشحاذون وبنات الليل هائمين وهم يحسبونه ملاكًا، التفوا حوله، ثم بدأوا وهم مسحورون ينهشون لحمه ببطء حتى مات.

الرائحة؟

إنها أكثر تعقيدًا مما يبدو.

يقول العلم إن رائحة الكتب القديمة هي خليط روائح مواد طيارة عالقة بالورق والحبر. ويقول قلبي إنها قصة طويلة؛ هي رائحة دخان سجائر أول قارئ، مع رائحة الزهور المجففة التي خبأها بين الصفحات القارئ التالي وهو عاشق، مع رائحة فراش القارئة الثالثة وهي فتاة جميلة نامت والكتاب في أحضانها، ثم اختلط كل هذا برائحة الخشب البندقي لمكتبة في غرفة عتيقة الأثاث، داخل بيت يسكنه رجل أرمل يقضي وقته في القراءة وسقاية قصاري الياسمين الموضوعة على شرفة غرفته، وحدث مرَّة أن سقطت من كوب في يده بعض قطرات من الشاي الأخضر وامتصها الورق.

يقول العلم إن رائحة ما بعد المطر الساحرة هي رائحة بكتيريا مخبأة في حويصلات النبات الجافة التي تنفجر بعد امتلائها بالماء بفعل المطر. ويقول قلبي إنها رائحة الحقيقة؛ عناق المطر والتراب هو رائحة الحياة في صورتها

الأولى، البداية حيث لا شيء سوى الله، وبعض الطمي ومحبة جعلته يتحرك.

يقول العلم إن رائحة فنجان القهوة التي تُحرك القلب خليط من تطاير الثيولات والألدهيدات والفينولات. ويقول قلبي إنها رائحة أرقٍ قوامه الحبهان؛ أرق يجعل الروح تنتبه، تفور أحزانها القديمة ثم تهدأ في منطقة يغلب على السعادة فيها شيء من الوقار، مضافًا إليها رائحة اليقظة في ثمرة جوزة الطيب، وقد اختلط كل هذا برائحة هدنة طيبة قوامها ونس المستكة، الوصفة الشعبية التي «تكبس» الجرح المفتوح بالبُن ليلتئم، هي التفسير الوحيد الذي أملكه كلما دخلت إلى محل بُن وأشعرتني رائحته بعد دقيقة واحدة من دخولي أنني «بقيت أحسن».

يقول العلم: إن رائحة النقود هي خليط رائحة القطن والصبغات والبكتيريا التي تنام فوق الأوراق.

ويقول قلبي: إنها خليط روائح الأماكن التي كانت تختبئ فيها النقود طوال رحلتها: من مشد صدر امرأة أربعينية ما زال عرقها يحفل ببعض الفتوة، إلى محفظة من جلد صناعي تُفرز في جيب حاملها بالوقت الملح وأحماض الدباغة، إلى جيب عامل محطة الوقود الذي يلتقط رذاذ البنزين من سيارة إلى أخرى. من درج خشبي

في محل ألبان عريق يعج برائحة خميرة القشدة، إلى علبة من الورق المقوى كانت تحتضن حذاء مدرسة جديد قبل أن تتحول إلى حصالة في دولاب من خشب الزان.

يقول العلم: الرائحة هي الذكريات.

ويقول قلبي: نحن في مصيبة، نحن نفقد كل ما عشناه.

رائحة المانجو هي رائحة شخللة ميدالية مفاتيح أبي على باب الشقة قبل أن يدخل حاملًا كيسًا تراصت فيه الثمار. الفنيك هو رائحة حمَّام المدرسة عندما ضبطَنا وكيلها ونحن نتبادل كروت الكوتشينة التي تحمل صورًا لنساء عاريات.

رائحة الطلاء الجديد هي بهجة كل شقة انتقلت للإقامة بها في العاصمة، غربة الليالي الأولى التي سرعان ما تنقلب مرحًا. بخور الصندل هو رائحة إيقاع الطبلة المرح خلف مُنشد «ماشي في نور الله» في بيت يغلب عليه الصمت: أب يقرأ جريدة، وجدة متوحدة مع مسبحتها، وأم تجمع الغسيل في انتظار أن يبدأ قرآن ظهر الجمعة. الياسمين هو رائحة الفتاة التي أغرقتني برذاذ زجاجتها ظنًّا منها أنني في طريقي لمقابلة أخرى وكانت الرائحة رسالة تحذير لها. رائحة الصباح الباكر هي رائحة مطربة تغني «بالسلامة يا حبيبي بالسلامة» كمقدمة لبرنامج لم أعرف يومًا ما الذي يقدمه. رائحة

الملابس الجديدة هي رائحة الفتاة الثرية التي قررت أنني بحاجة إلى تغيير هيئتي، فزارتني بحقيبة كبيرة بها ملابس الهيئة الجديدة التي ما إن انتقلت إليها حتى فسد ما كان بيني وبينها من غرام. رائحة الخمور هي رائحة الإغواء واكتشاف أراضي الأنوثة. رائحة القطار (خليط رائحة الحمَّام والتدخين والأقدام والعرق) هي رائحة قلب يتفتت وهو يفارق موطنه في المدينة النائية لأول مرَّة. رائحة البيوت المهجورة هي رائحة معمل كيمياء المدرسة الابتدائية عندما أمسك المدرس يدي ومررها فوق انتصاب عارم. رائحة الفرحة هي رائحة الخبيز في بيوت العائلة. الشتاء رائحة نهاره دخان شوي البطاطا، وليله تختلط فيه رائحة نتح أوراق الشجر العجوز مع دخان حرق قش الأرز. رائحة الصيف نعناع بلدي. الخوف رائحته غاز طبيعي. المرح له رائحة الفلفل الأسود. المفاجآت الطيبة لها رائحة المطر؛ أحب المطر عندما لا يكون متوقَّعًا، ولذلك أكره الضباب. الطمأنينة لها رائحة الثوم المجفف المُعلَّق فوق أحد حوائط شرفة البيت. المدد رائحته ورد بلدي. والفانيليا رائحة حزن استحالة العودة إلى غرفتي الصغيرة. موسيقى عمر خيرت رائحتها طلاء أظافر؛ رائحة محاولات إصلاح الشرائط التي تحمل موسيقاه والتي أفسدها كاسيت

انتهت صلاحيته. الإهانة لها رائحة الكاري الذي كان ينبعث من مطبخ المطعم الهندي بينما تؤدبني صديقة عرفت أنني على علاقة بامرأة لم أكن أعرف أنها متزوجة. بودرة التلك هي رائحة العيد الذي تبدأ أيامه من محل عم مجدي الحلاق. اللافندر هو رائحة محبتي لعمو سيف الذي ظل حتى وفاته يعايرني بأنه هو الذي علَّمني كيف أربط حذائي، وإلى اليوم تهب الرائحة كلما انحنيت لتطبيق ما علمني إياه. البنزين هو رائحة الفخر؛ كانت سيارتي هي أول ما أشتريه اعتمادًا على نفسي بعيدًا عن أموال العائلة. والبيروسول هو رائحة العصاري في بيت جدتي والجميع غارقون في قيلولة تمنح الأجواء سَكينة لا شيء يشبهها. ورائحة الصيدليات هي رائحة جلطة ساق أمي حزنًا على رحيل مولودتها في عُمر ثلاثة أشهر.

وقعت في النوم.

حلمت بصافية تقف داخل محل عطارة، كانت تتنقل بين البرطمانات وتضع في يدها القليل من كل واحد ثم تستنشقه وهي تتجنب النظر ناحيتي. أدركت أنه محل «أم رحاب» عندما ظهرت قادمة من الداخل وهي تعزف بالملعقة على كوب زجاجي به مشروبها السحري. دار بينهما حوار هامس، نظرت إليَّ بعدها أم رحاب معاتبة، وطلبت مني أن أقترب، عندما اقتربت منها كانت صافية قد

اختفت، وألبستني أم رحاب عقدًا من فصوص الحبهان، وكانت رائحته هي أول رائحة أقدر على تمييزها منذ يومين.

(٣)

استيقظت، وتحركت باتجاه رف التوابل في مطبخي.

في الطريق كنت أُفكر في أم رحاب ووقفتها الآمنة الهادئة في رحاب بضاعتها.

هل كانت تعرف ثمن هذا الأمان؟

هل تعرف كم كانت تكلفة استقرار البضاعة على الأرفف في سلام؟ حروب طويلة، دماء وصفقات ومعاهدات سلام، قسوة واحتكار وإعدام بالجملة، وتواطؤ وخيانات، قالوا إن «حرب التوابل كانت تهتكًا مميتًا»، وكانت الجملة الشائعة وقتها: «من يسيطر على التوابل يسيطر على العالم».

واحدة من الحروب قامت بين الهولنديين والإنجليز للسيطرة على الجزيرة الوحيدة التي يعرفونها مصدرًا لثمار جوزة الطيب، انتصر الهولنديون، فسرق الإنجليز شجرة وزرعوها في أرض بعيدة. كان صراعًا مُهلِكًا على ثمرة

كانوا يضعونها في مرتبة واحدة مع الذهب، وكان سعر جرامات قليلة منها بسعر بقرة، وكانت النساء يحملنها معهن كعلامة على الثراء.

هل تعرف أن المكتشفين الكبار لم يمتلكوا دليلًا يمكن تقديمه على ما وصلوا إليه سوى العودة بالتوابل؟ عاد «فاسكو دي جاما» بعدما دار حول أفريقيا بأطنان من القرفة والزنجبيل، وعاد «كريستوفر كولومبوس» من أمريكا بالفلفل الحلو والفانيليا.

هل تعرف أن التوابل هي التي أنقذت سيدنا يوسف؟ كان السيَّارة الذين التقطوه من البئر على رأس قافلة توابل في طريقها إلى مصر، وأن الهنود كانوا يُقسمون في المحاكم على الريحان؟ وأن الينسون كان مقدسًا لأنه لولا إضافته ما تناول أحد الأدوية شديدة المرارة؟ وأن مهر جميلات أفريقيا كان دخان حرق القرفة والزنجبيل؟ وأن العرب كانوا يُسمُّون الحبهان الذهب الأخضر؟ هل تعرف أن الفراعنة كانوا يُدفنون بتوابلهم؟ وأن الإغريق يقولون من يعد بذور الكمون بخيل؟ وأن الهنود الأصليين كانوا يتساءلون بحيرة شديدة عن سر حاجة الإنجليز لكل هذه الكميات من الفلفل الأسود، إلى أن أجمع الحكماء على كون السبب أن بيوت الإنجليز باردة جدًّا، ومن المؤكد أنهم يسحقون الفلفل الأسود

ويدخلونه في مواد بناء جدران منازلهم حتى يجلب لهم الدفء؟

هل تعرف أم رحاب شيئًا مما سبق؟ وإذا كانت لا تعرف، فلماذا زارتني لتُخبرني أنني ربما أجد علاجي في العطارة؟

(٤)

معجزة التوابل أنها لا تفسد، ولكن قد تبهت قوة تأثيرها بالوقت.

سحبت القليل من كل تابِل أعرف أنه ربما يساعدني على استعادة ما ضاع مني: نفسي.

وضعت كل صنف في طبق، وقررت أن أُسلِّم نفسي لكل واحد على حدة، وكلي رجاء ألَّا يخذلني.

أغمضت عينيَّ، واقتربت بحذر من حفنة الزنجبيل، لفحتني حدةٌ ما في استقباله لي، سرعان ما ألفتها فارتاح تنفسي. كان يحمل مزاج فناء المدرسة عندما تتصاعد فيه الأتربة على هامش مرح الفسحة؛ رائحة لاذعة في نهايتها حلاوة ما.

فيضان النيل هو الذي حمل إلى مصر حبَّات الزنجبيل،

وعندما وصل إلى أوروبا قديمًا وضعوه على السفرة في ملَّاحة إلى جوار الملح والفلفل.

يقولون: لكل شخص توابله، كما أن لكل شخص تقاليده.

فتحت عينيَّ أُفكر في النَاس الذين ينتمي إليهم هذا التابِل. استقر في قلبي أنه تابِل المغامرين، تابِل شخص يبحث عن طريق ما، أجمل ما فيه أنه بلا لافتات تحذير.

أغمضت عينيَّ مرَّة أخرى مشمولًا بطمأنينة، وقلت لنفسي: إنني أعرف هذه الرائحة جيدًا، إنها رائحة الصبر.

ثم رأيتني في شوارع العاصمة القديمة صباح يوم شتوي، ولا أحد في الشارع سوى شخص يُطل من شرفة عريضة تحتل الشمس نصفها، كان يبتسم، وكان أبي.

أُصيب أبي بالتهاب في المعدة، ومن بين قائمة الممنوعات التي تلاها الطبيب على أمي عقب انتهاء الزيارة المنزلية، لم يستقر في عقلي كطفل سوى كلمة واحدة كانت جديدة عليَّ وقتها: «الزنجبيل ممنوع».

آلام أبي جعلتني أشعر بحرج ما من السؤال عن ماهية هذا الممنوع، أجَّلت الأمر حتى يتم شفاؤه، ثم نسيت الموضوع حتى أطل أبي من شرفة تحتل الشمس نصفها.

أزحت الزنجبيل بعيدًا، ثم دسست أنفي في حفنة

حبهان. للحبهان سحر وقور، استنشاق رائحته وحيدًا قبل أن تنهي ثلاثينياتك يقول لك سرًّا: «ولا يهمك». هو جادٌّ فيما يعبر عنه، لذلك يليق بالبُن. رائحته لها علاقة بأول الخَلق، غموض التجربة الجذَّاب. عندما أغمضت عينيَّ كانت هناك جزيرة اختلطت فيها الجبال بالأشجار، وعلى شاطئها فرن بلدي تخبز فيه جدتي «الشُّريك»، شعرت أنه أفضل ما تداوى به مغترب، يطبطب كزيارات الأحباب المفاجئة، هو رائحة عازفي الإيقاع خلف أم كلثوم، ومؤلفي الكلمات المتقاطعة، والسيدة التي تقول لك: «إن الهاتف ربما يكون مغلقًا»، ومقدمي النشرة الجوية. على العين حارس رائحته حبهان، وهي أيضًا رائحة فقدان الاتجاه في ممرات خان الخليلي، وأشباح الطفولة عندما ينقلب خوف الحكي عنها إلى ضحك مجنون.

ثم جاء دور الريحان، تذكَّرت بطلة الفيلم التي كانت تُعدُّ الطعام لرجل تحبه لكنهما على وشك أن ينفصلا، وقالت لنفسها بينما تنثر أوراق الريحان الجافة فوق ما تطهوه: بعض الريحان سيجعلك تعود.

قلت لنفسي: هذا نبات طيِّب أورق في أرض دافئة، كريم بلا تحفُّظ، يشبه بهجة مقابلة نجمك المفضَّل مصادفة في الشارع، والأمل في أهداف اللحظة الأخيرة، وطريق المصيف، وقبول الاعتذار.

أغمضت عينيَّ، وقلت لنفسي: أنا أعرف هذه الرائحة جيدًا، هي رائحة المفاجآت السعيدة، وهذه «الزكاوة» العُشبية تجعله تابِل البشرية كلها، لا أحد بعينه.

دققت في الرائحة، رأيتني أخرج من باب كلية الصيدلة لآخر مرَّة، حاملًا شهادة التخرج باتجاه وظيفة في شركة أدوية كبيرة بوساطة من عمو عادل والد حمادة، كنت أُودِّع أيامًا حلوة، بينما تهب رائحة أيام لا دليل على أنها ستكون أحلى، لكنني كنت متأكدًا من ذلك.

قبل أن أدس أنفي في حفنة القرنفل، تذكَّرت الحبَّات التي كانت تفركها جدتي قبل أن تُلقيها داخل براد الشاي صباحًا، ثم أطلَّت الحبَّات التي كانت تُلقيها أمي صحيحة وهي تقلِّب مربى الجزر فوق النار، فاطمأن له قلبي.

كان كبش القرنفل ينمو قرب الهند في جزيرة لم يضع تاجر أو بحَّار قدمه فوقها، ولم يقدر أحد يومًا أن يرى شجر القرنفل بعينيه. كان الجميع يؤمنون أن الجن هم تجار القرنفل وبائعو هذه الفاكهة. يصل البحَّارة إلى الجزيرة ويضعون بضائعهم على الشاطئ ويعودون إلى سفنهم، وفي صباح اليوم التالي يستيقظون ليجدوا مكان هداياهم كميات من كبش القرنفل.

أغمضت عينيَّ، فشممت رائحة شوارع الإسكندرية الجانبية بعد المطر، ثم رائحة الانتظار الحلو في صالة ترانزيت في مطار ستتحرك منه باتجاه بلد لم تزره من قبل.

فتحت عينيَّ أُفكر في الناس الذين ينتمي إليهم هذا التابِل، استقر في قلبي أنه تابِل الذين يمتلكون مهارة استطعام آلام الذكريات، ومضغها على مهل، حتى يتحول مُرها إلى حلاوة حريفة في منتصف الصدر.

أغمضت عينيَّ مرَّة أخرى، وقلت لنفسي: إنني أعرف هذه الرائحة جيدًا، هذا الخليط من القسوة والجاذبية، إنها رائحة الوحدة.

ثم رأيت سحر لأول مرَّة منذ سنوات طويلة، كانت تضع فوق رأسها قبعة رياضية، وكانت هذه النحيلة السمراء تسير منفردة في سوق أسوان، خطوتها بطيئة، لكن لا تخلو من ثقة. ظهرت غمامة من دخان البخور قادمة من أحد محلات العطارة، اختفت خلفها، ثم انقشعت فظهرت من جديد، وفوجئتُ أنها ترتدي ملابس المدرسة التي لم أرها إلا فيها، وعندما التقت عيوننا شب حريق ما.

عندما جاء دور القرفة، اقتربت منها بحذر، تقول الأسطورة إن أشجار القرفة تحرسها الأفاعي، وفي رائحتها

ما يقود النمور إلى الجنون. وتعبيرًا عن فداحة مُصابهم قام الرومان بحرق مخزون عام كامل من القرفة؛ كجزء من مراسم تشييع زوجة الإمبراطور «نيرون».

كان بطل الفيلم يقول إن الفتاة التي يطاردها تخاف الوقوع في الحب، وإنها ملفوفة حول نفسها كأعواد القرفة.

بينما أفرك بعض الأعواد في كفي، تذكَّرت هذه الفتاة، وكيف انفلت سحرها كثيفًا عندما تهشم تماسكها.

استنشقت بعمق ما تفتت في كفي، تسللت حبيبات قليلة إلى صدري، وكانت رائحة العائلة، رائحة ليل مكان مغلق يتجمَّع فيه من تحبهم، يتبادلون الضحك بعد أن انقطعت الكهرباء، رائحة الإثارة في الجوع الذي تعرف جيدًا أنه سينتهي أمام أكلتك المفضَّلة، وبهجة استذكار المادة التي تعشق أستاذها. رأيت جدتي تنثرها فوق طبق الأرز باللبن فسرى طعم المزيج في حلقي.

هي تابِل الطيبين القادرين على وضع أياديهم على ما يجعل الرضا أمرًا مبهجًا.

قال الشاعر الأوروبي واصفًا النَّمش في وجه حبيبته: «كأنما أحدٌ قد نثر القرفة فوق أنفكِ ووجنتيكِ».

أغمضت عينيَّ، فرأيت فتاة جميلة تمشط شعرها برقة أمام المرآة، كانت ترتدي الأسود وعارية الكتفين. دققت النظر وكانت صافية.

(٥)

قبل ثلاثة أشهر كنت أنا وصافية في التوفيقية، وهناك استقر جزء كبير من محبتي لها، لكنه استقر في قلب ملفوف بالقلق والتردد.

تصعلكنا في أكثر من مطعم داخل حدود العاصمة وفي أطرافها، لكن المقرب إلى قلوبنا كان مطعم «القاعدة»، أو هكذا أسميناه بسبب صاحبيه الشقيقين الملتحيين (صلاح وفتحي). محل مساحته متوسطة في منطقة مطاعم التوفيقية يُقدِّم الأكل البيتي. كان الحاج صلاح يُقدِّم نفسه للزبائن بجملة لا تتغير: «أنا بتاع أكل ماما»، وكان فاتنًا، ويعرف جيدًا أنه يمتلك مهارة الأمهات ببراعة، لكنه في نظري أنا وصافية ظل مطعمًا شعبيًّا، لذلك كانت زيارته فاكهة.

كنا مجرد زبائن للمحل حتى اليوم-الذي نادت فيه صافية على الحاج صلاح قائلة إن الأرز نيِّئ. اعتبرها هو إهانة، مد أصابعه في عمق طبق الأرز الموضوع أمام صافية، وسحب بعض الأرز ليُجرِّبه، ثم كرر الحركة من جديد، وقال معتذرًا: «دي أول وآخر مرَّة، إحنا آسفين، حاجة مزعجة فعلًا». قالت له صافية التي كانت غارقة في الدهشة: «يعني المزعج إن الرز ني بس؟! ما أزعجكش

إنك تضرب إيدك كده وتلغوص في أطباق الزباين؟!».
كان الحرج باديًا بقوة على وجه الحاج صلاح، رأيته يبتلع ريقه بصعوبة، وتعاطفت معه. ضحكتُ حتى يمر الموقف بسلام، فهمتني صافية فضحكت هي أيضًا، فابتسم وهو يمسح يده في جلبابه، ثم أقسم إن «النهارده إنتو معزومين».

صرنا بعدها أصدقاء.

ذهبنا مبكرًا في مرَّة، وبعد أن عرف طلباتنا وقف في المطبخ يجهزها. سمعنا جلبة في السوق، أطل الحاج صلاح خارجًا، ثم رجع لنا وقد اصفر وجهه قائلًا: «ما تمشوش غير لما ييجي الحاج فتحي». في اللحظة نفسها كان رجال مباحث يرتدون زيًّا مدنيًّا يدخلون ويسحبونه، كان موقفًا مُربكًا.

قلت لصافية بدون تفكير: «يلَّا بينا من هنا». سحبتها من يدها لكنها لم تتحرك. قالت إن الرجل ائتمننا على مطعمه، فلننتظر شقيقه.

كنا نقف متوترين. دخل علينا رجل في حدود السبعين، يسير على مهل لكنه على قدر من التماسك، ألقى السلام ثم نظر إليَّ قائلًا بصوت أقرب إلى الرجاء: «والنبي شوية بطاطس ومعلقتين رز وحتة حمرة مسلوقة». قبل أن أعثر على ردٍّ كانت صافية تعلنها صريحة: «حاضر يا حاج، استريح».

خلعت الجاكيت وعلَّقته فوق المقعد، وشمرت كُمَّيها، وسحبتني من يدي: «تعالى، هتساعدني». اعترضت على ما يجري. قالت: «الراجل عجوز وشكله هيموت من الجوع».

أنا الآن أتابع الفتاة التي تعلَّق قلبي بها، وهي تقف في مطبخ مطعم شعبي في سوق التوفيقية أمام رُخامة عريضة أسفلها حلل ضخمة فوق منقد بوتاجاز مصنوع يدويًّا، ترفع الأغطية لتختبر نضج ما استقر تحتها، تغرف الأرز والبطاطس، وتحاول بابتسامتها أن تخرجني من التوتر.

وصل الحاج فتحي، ولم يكن منزعجًا. قال إنهم يقبضون على واحد منهما كل فترة و«يومين وهيسيبوه»، لكن كان باديًا عليه أنه لم يحب وقفة صافية في المطبخ الصغير. أخذ الأطباق ووضعها أمام الرجل العجوز، ثم سألنا: «هتاكلوا إيه؟». أخبرته أننا سننصرف.

يتحدثون دائمًا عن حاجة المرأة للشعور بالأمان مع الرجل الذي تعيش معه. لم أسمع يومًا أحدًا يفتح سيرة حاجة الرجل لهذا الشعور. يجد الرجل الأمان في رفقة امرأة قوامها العطف والرقة، واحدة تنتصر في وقت الاختيارات المتضادة للإنسانية، امرأة الكرم هو فلسفة حياتها. كرم المرأة ينعكس على كل شيء فيها، من درجة ضبط التوابل في طعامها، إلى درجة اهتمامها بكُحل

عينيها، مرورًا بكرم المودة تجاه الآخرين. المرأة الكريمة ساحرة بالفطرة، بالضبط مثل صافية.

قررت لأول مرَّة منذ بدأت علاقتي بصافية أن أحكي لأمي.

اتصلت بها، وأخبرتها ملخصًا سريعًا عما يجري، وكلَّمتها عن حيرتي في اتخاذ قرار، وخوفي من أن أفسد بالتسرع حياة شخصين مرَّة واحدة، وربما أكثر. قالت إنها ستناقش الأمر مع أبي ثم تعاود الاتصال بي.

في مساء اليوم نفسه هاتفني أبي، طالبًا مني أن «ادخل البيت من بابه»، وقال إن هذا سوف يحسم كل شيء. طلب مني أن «تأمَّل أهلها وبيتهم وطريقة تعاملهم مع بعضهم البعض»، وقال إنه سيتصل بعمي الحسيني ليكون رفيقي في هذه الزيارة الأولية، وبعدها ستصبح الأمور أوضح بالنسبة لك وبالنسبة لنا أيضًا.

طلبت من صافية السماح لي بالزيارة في صيغة الرغبة في «أكلة سمك سويسي بيتي»، وأخبرتها أن عمي ربما يكون موجودًا. لم تُعلِّق بأكثر من «يا أهلًا وسهلًا» كريمة.

في الطريق إلى بيت أهل صافية في السويس، طلب مني عمي ألَّا أكون متسرعًا في قرار الزواج. كان يرى أنني «لسه صغير»، وقال إن السن المناسبة لزواج الرجل هي سن الأربعين. سألته عن السبب. قال: «الأربعون سن

النبوة، والجواز علشان ينجح مش محتاج أقل من نبي».
ثم ضحك ضحكة سخيفة تمنَّيت معها لو كان أبي قد أعاد إليه «التوستر» وأغلق صفحته نهائيًّا.

وصلنا إلى البيت، استقبلتنا الأم، بعد دقيقة وصل الخال. دخلت صافية حاملة صينية الشاي وصافحتنا ثم جلست، فرفع عمو الحسيني يديه قائلًا: «نقرا الفاتحة بقى؟».

ارتبك الجميع، وأنا أولهم، اعتبرها الخال دعابة فضحك. لكن أم صافية تدخَّلت، ولم تكن قد لحقت أن تعرف اسم مرافقي أصلًا، وقالت: «الأستاذ معاه حق، بقالكم سنة تعرفوا بعض».

كانت الأيادي مرتفعة بالفاتحة، لمحت ابتسامة على وجه صافية، لكنني كنت في غاية الارتباك.

رجعت إلى شقتي منقبض الصدر، منزعجًا، أشعر أنني مقيد. اتصلت صافية مرَّتين ولم أرد. في اليوم التالي اتصلت بها، وقلت إنني لم أكن مستعدًّا لكل ما حدث، كانت مجرد زيارة تعارف، ولم يسبق أن أخبرتني بما يعرفه أهلك! وكان حماسهم مربكًا، وعمي رجل أحمق، والوضع كله غير مريح.

قالت صافية: «بالنسبة لحماس أهلي؛ فهذا البيت يزوره كل شهر رجل يطلب يدي، وحماسهم هذه المرَّة سببه

أنها المرَّة الوحيدة التي أستقبل فيها بنفسي رجلًا غريبًا يزورنا لأول مرَّة. وأنا لم أطلب منك الزيارة، لم أطلب شيئًا أصلًا، وعندما طلبتها أنت تعاملت معها بشكل عادي منعًا لأي توتر، وكنت مشغولة باختيار أنواع السمك للغداء أكثر من انشغالي بالهدف من الزيارة. ويؤسفني حقًّا أن أكون سببًا لكل هذا الانزعاج لأي شخص، فرجاء أن تستعيد هدوءك، واعتبر أن هذه الزيارة لم تحدث من الأساس، سلام».

قالتها ثم اختفت.

(٦)

أجوب المعادي بحثًا عن فرع سوبر ماركت «ذكرى» الذي يعمل فيه الفتى الذي كان يحمل إليَّ مخبوزات القرفة. فتَّشت كثيرًا حتى وجدته أخيرًا، تذكَّرني بسهولة، طلبت منه أن يمنحني من وقته ساعة واحدة فقط مقابل مكافأة كبيرة، تردد قليلًا ثم أبدى موافقته بعد رجاء حار.

اشتريت من محل مخبوزات القرفة علبة بها كحكة طازجة مغطاة بالكراميل والبيكان، واشتريت كارتًا صغيرًا ألصقته بها بعد أن كتبت عليه:

«قصدت باب البيت

وانتو بيت الكرم

حنوا بنظرة رضا

ع اللي منكو اتحرم»

طلبت من الفتى أن يحمل العلبة إلى شقة صافية، وأن يُسلِّمها لها في يدها، هي ولا شخص غيرها.

سرت إلى جواره حتى توقف أمام عمارة قديمة من ثلاثة طوابق، قال: «هنا شقتها». قلت له: «سأنتظرك».

قبل أن أنهي سيجارتي كان الفتى يخرج من باب العمارة. قال إن صافية تسلَّمت منه العلبة، سألته عن تفاصيل أكثر: ماذا قالت له؟ هل سألته عني؟ لكن لا شيء، قال: «أخذت العلبة وقرأت ما عليها ثم شكرتني وأغلقت الباب».

شكرته وانصرف، وتواريت بعيدًا. وقفت أسفل شجرة وعيناي على كل نوافذ العمارة، نسيت أن أعرف منه رقم الطابق، حاولت الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق كالعادة، فكرت أن أطرق كل أبواب المبنى حتى تفتح لي، لكنني رأيت في الأمر مبالغة فجة، وقد يكون الإحراج قاتلًا.

قلت لنفسي: ماذا كنتِ تنتظرين؟

وقالت نفسي في أسى: لا شيء.

في البيت كان التلفزيون يذيع فيلمًا مملًّا، بينما

أحاول تخدير معدتي المرتبكة بمشروب دافئ. كنت مرهقًا وليست لديَّ رغبة في مقاومة النوم، استسلمت له، واستيقظت بعد قليل على اهتزاز التلفون في يدي.

كانت رسالة من شركة المحمول تقول إن تلفون صافية أصبح متاحًا الآن.

اليوم الرابع

(١)

ينص قانون «نظرية فيثاغورس» على أنَّ «مجموع مربعي طول ضلعي الزاوية القائمة يُساوي مربع طول الوتر، بالإضافة إلى أنَّ مجموع مساحة المربعين القائمين على طول ضلعي الزاوية القائمة في المثلث القائم يُساوي مساحة المربع القائم على الوتر في المثلث القائم، ويُمكن التعبير عن قانون «نظرية فيثاغورس» باستخدام الرموز، أي إذا كان لدينا مثلث قائم الزاوية يُسمَّى (أ ب ج)، وقائم في الزاوية (ب)، فإنَّ: $(\text{أب})^{٢} + (\text{ب ج})^{٢} = (\text{أج})^{٢}$. حيث (أ ب) و(ب ج) هما ضلعا المثلث القائم، و(أ ج) هو الوتر».

أُجيد حل مسائل الهندسة في ثوانٍ، مهارة كان أستاذ

«مُطيع» يعاير بها بقية طلاب الفصل، لكن الفشل كله يكمن في القدرة على حفظ نصوص النظريات والقوانين المستخدمة في حساب الزوايا والمساحات، فهمت القاعدة وأُطبقها بنجاح فما الهدف من سخافة اختبار قدرتي على الحفظ؟

كنت أغسل وجهي وأقوم في الوقت نفسه بتدوير نص النظرية في مخي وأكرره مرَّة تلو الأخرى حتى يستقر في نقطة آمنة داخل ذاكرتي استعدادًا للامتحان.

أدهشني أن رائحة الطبخ انبعثت مبكرًا من مطبخ أمي. قلت لنفسي: هي تسعى لتعويض أهل المنزل عما عانوه في اليومين السابقين؛ «البيض والسردين». سألتها عن قائمة طعام الغداء، قالت إنها لا تطبخ من أجلنا، هذا اليوم هو دورها في عمل الغداء للمعزِّين ضيوف أم سمير. تتولى كل شقة في العمارة هذه المسؤولية لمدة ثلاثة أيام. لكنها قالت: «عاملة حسابكم». طعام اليوم هو الكوسة و«كفتة الحبايب»، وكانت وجبة مُرضية بالنسبة لي.

احترت أين يمكن أن أضع البلوك نوت الأصفر، وهل من الأفضل أن أُعيده إلى سحر قبل المدرسة أم بعدها. أخاف أن يقع في يد أحد خلال اليوم الدراسي؛ يمتلئ الفصل عندنا بـ«حرامية الساندويتشات». فكرت قليلًا

ثم اخترت أن أقوم بالمهمة بعد المدرسة، على أن أضع عيني في رأسي والبلوك نوت في قاع الحقيبة.

«عندك إيه النهارده يا سيسكو؟».

كانت الجدة تسأل، وكنت أتمنى أن أمتلك جرأة كافية لأُخبرها بالقصة، لكنني شعرت أن الوقت غير مناسب. قلت لها: «لا شيء غير الامتحان». طلبت مني أن أتوجَّه بعد المدرسة إلى بيتها لأُحضر لها من درج الكومودينو روشتة قديمة كتبها لها أحد الأطباء، وأن أُهوِّي البيت قليلًا. وعدتها أن أفعل.

حاولت أن أسترجع نص «نظرية فيثاغورس» مع آخر رشفة في كوب الشاي باللبن، لكنني فشلت تمامًا، تقلَّصت معدتي، نسيت نص النظرية بعد عشر دقائق، فماذا سأفعل والامتحان في الحصة الثالثة؟

فكرت أن أصطحب الكتاب معي للمراجعة بين الحصص، لكنني وجدته حلًّا غير عملي. أُذاكر الرياضيات من كتاب «المعاصر»، قررت أن أقص من كتاب المدرسة الذي لا أستخدمه نص النظرية، قصصت الورقة ووضعتها في جيبي مقررًا أن أراجعها كل عشر دقائق حتى يبدأ الامتحان، شعرت بالارتياح وغادرتني الكركبة مؤقتًا.

(٢)

لا أعرف لماذا أطلقوا عليها اسم «كفتة الحبايب».

كفتة قوامها قليل من اللحم الجملي والكثير جدًّا من الأرز المطحون، مضافةً إليهما عجينة الشبت والكسبرة. يتم تحمير الكُرَات في الزيت ثم تُقدَّم مغمورة في صلصة طماطم كثيفة. هي الطبق الرئيسي على موائد المناسبات الحزينة في مدينتنا، التقشف الذي يلفها يليق بالأسى الذي يلف العزاء أو ذكرى أسبوع المتوفَّى أو ذكرى الأربعين. كان ممكنًا الاستغناء عن الطعام أصلًا في موضع مثل هذا، لكن سفرة الطعام مناسبة للمواساة، «لقمة مع بعض» هي تطييب للخاطر، ومساعدة مستترة لأهل الفقيد على استعادة الشهية جزئيًّا، ومحاولة جماعية لتذكيرهم بأن الحياة مستمرة، وطعام مساحة البهجة والفن فيه قليلة مثل كفتة الأرز يناسب كل هذا. لا معنى للمواساة بقطع اللحم الملبس أو صدر ديك رومي أو ورق العنب، هذه أصناف تزيد الأوجاع، وتُمعن في تهشيم القلب حزنًا على من رحلوا وحُرموا من كل هذا الجمال.

حسنًا.

غداء اليوم «كفتة الحبايب»؛ طبق حزين يُقدَّم مع الأرز الأبيض.

(٣)

كان أستاذ التاريخ يشرح أهداف ثورة يوليو: «احفظوها كده.. ٣ قضاء و٣ بناء: القضاء على «الاستعمار، الاحتكار، الإقطاع»، وبناء «جيش وطني، عدالة اجتماعية، حياة ديمقراطية»». أُحب في التاريخ أن أخطاء البطل تتناسب طرديًّا مع مقدار عظمته، مثلي تمامًا.

كنت كلما حانت الفرصة أقوم بمراجعة الأهداف التي كان يسعى إليها «فيثاغورس» من خلال نظريته.

جاءَ الامتحان سهلًا؛ مجرد مسألة واحدة، تحتوي على تفصيلة صغيرة ذكية، عثرت عليها في ثانية. سلَّمت ورقة الإجابة بعد عشر دقائق، تأملها الأستاذ «مطيع»، ثم هز رأسه استحسانًا. عُدت إلى مقعدي وأخرجت البلوك نوت، وضعته فوق ساقي أراجع كل كلمة قبل أن أُعيده إلى صاحبته.

(٤)

تلكَّعت كثيرًا عند أول الشارع الذي تسكن فيه سحر، إلى أن لمحتها قادمة من بعيد، وكانت من حسن حظي تسير منفردة. انتظرتها حتى اقتربت وسبقتها بعدة

خطوات، إلى أن أصبحنا أمام باب عمارتها، ثم ألقيت البلوك نوت من يدي، وأسرعت الخطى دون أن ألتفت إلى الخلف.

(٥)

وصلت إلى بيت جدتي الذي هجرته قبل أعوام لتستقر معنا، عثرت على الروشتة القديمة بسهولة، ثم فتحت جميع النوافذ لتهوية البيت كما طلبت مني. وما إن تحرَّك هواء يناير داخل البيت حتى استيقظت رائحته؛ معجزة رائحة هذا البيت أنها رائحة جدتي بالضبط، كأنها قد خزَّنت تحت جلدها كل ما حدث هنا.

توقفت جدتي قبل سنوات عن سؤالي: «بتحبني ليه؟». على الرغم من أنني كبرت وأصبحت أمتلك إجابات جديدة حقيقية أكبر من مجرد طفل يحب جدته لأنها توافيه دائمًا بأقراص «البيمبو».

أُحبها لأنها تستطيع أن تخبرني دائمًا عن أفضل ما في شخصيتي، تفعله بانسيابية وبساطة، ولا تعقبه مثل أبي وأمي باستدراك: «بس عيبك». تهتم بكلامي مهما كان تافهًا، ولا حاجة لاتباع قواعد بعينها عند التعامل معها.

أُحب في علاقتنا الفوضى. تمنحني دائمًا طمأنينة أن مشكلتي هي مشكلتها، وتتفاهم معي بهدوء، وتجيد ضرب الأمثلة، وتمتلك دائمًا مبررات وتفسيرات مقنعة لأي شيء. وهي تكافئ بلا إنجاز، وتعفو بلا شروط، ولا تعايرني بأنها تفهمني جيدًا، وتغويني ببراعة: «ذاكر كويس، هتلعب كويس قوي». أُحب فيها تشجيعي دائمًا بكلمة واحدة لا تتغير: «أحسنت». يدهشني أنني من النادر أن أجدها نائمة. تقسم كثيرًا بـ«وحياة عبد الله». باعت لي أفكارًا كثيرة مجانًا، واشتريتها كلها عن اقتناع: فكرة أن «الاعتراف بالخطأ يمحوه»، وأن «الذكاء والغباء مسألة أخلاق، ولا يوجد من هو أذكى من شخص مِتربي»، وأن «الفرح كله معارف ولكن الشِّدة كلها أصحاب»، وأن «من قال الحمد لله شبع». أُحب الطريقة التي تداوي بها أحزان أي شخص: «كُل لك لقمة وادخل نام شوية». وأحببت القانون الذي فرضته على نظام المنزل: «ما تعزموش غير الناس اللي بترد العزايم، عزومة البخيل العكوسات في ديلها».

نظرتها إليَّ من أسفل نظارتها مرعبة، لكنها تنتهي دائمًا بشعور ما بالأمان لا أفهم مصدره؛ ربما أمان له علاقة باطمئناني لكون هذه السيدة القوية جدتي. تُعاقب بنظرة،

وتُحذِّر بحاجبيها، وتُخرج البرد بطقطقة الأذن، وتزهو دائمًا بأن «عبد الله ما بيكدبش». هي الوساطة الوحيدة التي أمتلكها، لديها مهارة إقناع أبي وأمي بما فشلت في إقناعهما به، تُمرِّر لي جنيهات قليلة كل فترة بلا هدف سوى «لا تمشي وجيوبك فارغة».

أُحب فيها جاذبيتها عندما تتوسط اجتماع العائلة في صالون المنزل. أُعجبت بها عندما عرفت أن الصينية النحاس الموجودة في غرفتها وفوقها سبرتاية صفراء وفناجين قهوة بيضاء بحزام ذهبي عريض وأطباق زرقاء ومنفضة زجاجية على هيئة جسم طائر، ليست مجرد ديكور، ولكنها قطعة من تاريخها عندما كانت سيدات العائلة يزرنها وهي تتناول قهوتها الصباحية مع سيجارة، يحكين ويُدخِّن والفنجان يجر الفنجان حتى ينصرفن مع موعد إعداد طعام الغداء، وهي العادة التي قرر أبي أن يُغلق صفحتها بصرامة خوفًا على صحة الجدة.

أُحبها لأنها تأتمنني على مفتاح بيتها وهو أمر عظيم. تُسر لي بأخطاء أبي طفلًا وصبيًّا، وتحنو على أمي، وتعطف على عم سيد حتى تنزل دموعه، وتشاكس خالي حتى نغرق جميعًا في الضحك، ولا يوجد في العالم كله بطانية أكثر دفئًا من بطانيتها.

سرقني النوم وأنا سارح، وعندما استيقظت كان الليل قد هبط. أغلقت الشبابيك وغادرت البيت تاركًا قطعة خضراء من قلبي فيه.

(٦)

أفشل كثيرًا في أن أفهم نفسي، لكن لم يحدث مرَّة واحدة أن فشلت في معرفة ما يدور داخل رأس أمي من طلَّة واحدة في عينيها.

عندما فتحت لي باب الشقة كان القلق والتوتر باديين عليها. سألتني بصوت مرتبك: «اتأخرت ليه؟».

وسمعت صوت أبي قادمًا من الصالة: «عبد الله».

كان يقف متحفزًا. طلب مني أن أقترب منه، ثم سألني غاضبًا: «إنت بتكلِّم بنات؟».

حاولت أن أتماسك قدر المستطاع، أجبت بالنفي، فأخرج من جيبه البلوك نوت الأصفر، ورماه بقوة مؤذية في وجهي: «أُمَّال إيه ده؟».

قبل أن أرد، طلب مني أن «هات مفاتيح بيت الجدة».

تمنيت أن يكون هذا العقاب هو ذروة غضبه، فتشت في جيبي عن المفاتيح وأنا أرتعش، أخرجتها وكانت مُعلقةً بها

الورقة الصغيرة التي قصصتها من كتاب المدرسة صباحًا من أجل المراجعة.

«إيه ده؟».

أمسك أبي يدي، وسحب ما بها، ثم طبق كفي بين عظام كفه الصلبة، وتأمل الورقة فأصابه مس من الجنون: «إنت بتغش؟».

وكانت الصفعة الأولى.

تلقيتها بثبات ولم أتحرك من مكاني. تقول لي جدتي دائمًا: «كلاويك ساقعة». أثار برودي جنون أبي فتوالت الصفعات. تراجعت قليلًا محاولًا الهروب، فبدأت مرحلة سحب الحزام الجلدي من عراوي البنطلون واللَّسوَعَة عن بُعد. تدخلت الأم فنهرها الأب طالبًا منها بحزم أن تنسحب من المشهد لأنه يرى أن ابنه «بقاله كتير ما اترباش»، فأذعنت الأم. وعندما اقتربت الجدة دفعتها أمي إلى داخل الغرفة. كنت قد انزويت بعيدًا في أحد الأركان، افتتح أبي مرحلة الركل الغبي بصيحة: «إنت نسيت نفسك». حاولت أن أتفاداه، فأصاب سن حذاء الأب رُكبتي بقوة. كان أبي يضرب وهو يُعدِّد لي أخطائي: «سجاير، وسرقة، وبنات، وفضايح، وكمان غش؟». ثم زادت وتيرة الضرب وهو يكرر الجملة بهستيريا: «كله إلا الغش.. كله إلا الغش».

ضرب أبي للذكرى؛ يُشعرك بمزيج من الألم والإهانة حتى لا تنسى الدرس أبدًا، جراحة يستأصل بها فص المخ الذي حرَّضك على الخطأ. لم يوجعني في ضرب أبي عصبيته الممرورة، ولم يوجعني أنني مظلوم ولم أغش، ولم توجعني رُكبتي أو صدمة خيط الدم المنساب من أنفي، لكن أوجعني كثيرًا أن أبي فاجأني بالأمر، أوجعني الغدر، أوجعني أنني رأيت أبي في هذه اللحظة يخون «العيش والملح».

(٧)

رقدت في الفراش متألمًا. لم أُحب منظري أمام أمي وجدتي، ولم أُحب أن أحدًا منهما لم يتدخل. كانت القسوة فجة، وأحزنني أن سحر ربما تواجه المصير نفسه حاليًّا في شقتها، وأحبطني أنني لم أمتلك فرصة للدفاع عن نفسي، وكانت الضربة القاضية أن تأكدت من ضياع كل فرصة ممكنة لحضور حفل الغد.

دخلت جدتي تحمل طبقًا فيه الموز والبرتقال، كانت عاجزة عن الكلام، وأنا أيضًا.

فصَّصت لي ثمرة برتقال، ثم وضعت الطبق إلى جواري

على الفراش، وخلعت مسبحتها عن رقبتها وأخذت تستغفر. ثم دخلت أمي تحمل راديو المطبخ، وصَّلته بالكهرباء ووضعته إلى جواري، ثم جلست ملتصقة بالجدة.

كانتا صامتتين تتأملاني بمزيج من الامتعاض والشفقة.

قالت الأم: «حاول تنام».

فقالت الجدة: «ما أكلش حاجة».

فقلت: «مش عايز آكل».

انفعلت الأم: «إنت عملت إيه؟ إيه اللي حصل؟».

فطلبت الجدة أن «سيبيه دلوقتِ».

لم أستطع أن أتقلب في فراشي من الألم. وسمعت خالي على باب الشقة وأمي تستقبله ببكاء ذي نشيج ميَّزت من بينه كلمة «عبد الله». وسمعت أبي يصيح: «ده بقى عيِّل مُقرف، أنا مش عايز أقول بيعمل إيه». وطلبت جدتي منه أن «ما تدخلش عليه، سيبه يستريَّح، إبراهيم عدمه العافية». وكبرت آلامي عندما سمعت صوت الشقة يُغلق، ففهمت أن خالي تواطأ معهم.

فتحت أمي الباب قليلًا، طلبت مني أن أُشغل الراديو وأترك نفسي للنوم، ثم أطفأت نور الحجرة.

مددت يدي وشغَّلت الراديو، وجدت موسيقى هادئة فتركتها واسترخيت في الفراش. انتهت سريعًا، ثم بدأت موسيقى تتر برنامج أُحبه يعرض قصص

«أغرب القضايا». بدأ المذيع كلامه بـ«جرت وقائع هذه الجريمة عام ١٩٧٩ في سيريلانكا». حاولت أن أتخيَّل سيريلانكا، ثم قررت أن أهرب إليها وأعيش بقية حياتي هناك. رأيتني أقوم من فراشي، وأنزل دون أن أُودِّع أحدًا، أسير عبر جبال وغابات، وأعبر بحورًا، وأجتاز صحاري، إلى أن أرهقني المشي فنمت، وكان أكثر ما يؤلمني هو شعوري بالجوع.

القاهرة (٢٠١٧)

الجوع فراغ، وكل فراغ مؤلم.

كان ألم أم سيدنا موسى أن فؤادها أصبح فارغًا.

فراغ المعدة، القلب والبيت والوجدان والطريق والجيب، كل فراغ يؤلم صاحبه، ما عدا فراغ العقل؛ فهو يجلب له النعيم.

عندما حكت لي صافية عن أغرب ما تذوقته كانت تحكي تجربة رومانسية. أما أنا فقد حكيت لها عن أغرب ما تذوقته وكان تحت وطأة الجوع.

أنا وصديقي عائدان إلى الشقة التي نقيم فيها أيام سنة الكلية الأولى في القاهرة، ونحن مُعدمان حرفيًّا، نعود سيرًا على الأقدام، ولا قرش واحد معنا، ونحلم بمعجزة.

كنت أُصبره وأُصبر نفسي أنه في الشقة بعض فصوص الهايش المخصوص وارد البلد، وشاي وسكر ولبن.

ألملم يأسه بمشهد فص الهايش وهو يخرج من كوب الشاي باللبن المحلى الساخن وقد انتفخ وحرك الدفء سُكَّر السمن البلدي النائم فيه، وكيف أنه سيبطن المعدة ليومين على الأقل.

جلسنا نحتفل بالوجبة بعد أن حضَّرنا كل شيء، أضفنا آخر ما تبقى من اللبن إلى آخر ما تبقى من الشاي والسكر، فظهرت على السطح كرات بيضاء صلبة، وظل الشاي في قاع الكوب على حاله، وكلما قلبنا المزيج كانت الكرات تزداد كثافة بشكل مخيف، ويتحول لون الشاي إلى اللون الرمادي. سحب صديقي علبة اللبن مدفوعًا بهاجس اتضح أنه حقيقي؛ هذه علبة لبن منتهي الصلاحية منذ أسبوع.

قلت لصديقي: «إنهم لا يكتبون التاريخ الحقيقي، ويتركون مهلة أوسع». قال: «أنا أيضًا أعتقد ذلك». وافقني صديقي الرأي، وكنا نحن الاثنان مجرد «بهائم» جائعة.

دفنًّا أصابع الهايش في المزيج، كان طعمها معدنيًّا، يترك بعد قليل أثرًا حامضًا، وكانت كرات اللبن المتكلسة العالقة بالفص تملأ الحلق بمرارة صخرية.

قمنا ليلًا نتلوى من الألم، جرينا إلى مستوصف قريب، علقوا لنا المحاليل، واتصلوا بأهالينا. ظهر بعدها المدد بجميع أنواعه قادمًا من مدننا البعيدة.

تذكَّرت هذه الواقعة مجددًا وأنا أحتضر جوعًا. أقف على باب المطبخ أراقب صافية وهي تحمر خليط قطع كبدة الدجاج مع الزبيب واللوز في طاسة كبيرة، كجزء من جريمة الأرز بالخلطة التي تُورِّطنا فيها صافية بمهارة كل فترة.

«سأموت من الجوع».

قلت، فذكَّرتني صافية بقاعدة قديمة اتفقنا عليها: «لا يوجد في العالم من يشعر بسعادة أكبر من سعادة شخص أكل بعد جوع»، هذا بخلاف أن «الجوع يحلِّي البضاعة»، وهي الميزة الوحيدة فيه: جوع السفر يحلِّي لحوم «طعام الطائرة» ذات المذاق الشمعي. جوع البحر يجعل قطع «الفريسكا» اليابسة مبهرة. الحرمان الذي يقود المريض إلى الجوع يجعله واقعًا في غرام «أكل العيانين»، فيتعامل مع قطع الخضار السوتيه تعامله مع قطع الفاهيتا. شهية الفواعلية ابنة «الشقاء» الذي يخلق جوعًا، تجعلهم يدللون أقراص الطعمية داخل لقمة العيش بإضافة قطعة جبن أبيض براميلي. أكل بوفيهات الأفراح البارد، المصنَّع بالجملة، البايت، عديم الشخصية، تتحول محاولات الحصول عليه إلى معارك جانبية بعد جوع الرقص واللف على المعازيم للترحيب بهم والجري خلف الأطفال.

يقول غاندي «الجوعى يتجلَّى لهم الله في رغيف الخبز». وأنا تتجلَّى شهيتي برؤية صافية.

تذكَّرت جدتي وهي تقول: «اللي اتعود على أكلك يشوفك يجوع».

الجدة منجم حياة، يتناسب حظ الواحد طرديًّا مع الفترة التي يسمح له بها القدر للتوغل بعيدًا داخل أعماق هذا المنجم.

في إجازة أول سنة جامعية، فاجأت جدتي آلام الصدر، كانت تزورها كل فترة، لكنها كانت أشد هذه المرَّة. قال الطبيب إنه القلب كالعادة، لكن لا ضرورة للانتقال إلى المستشفى، يمكنها البقاء في البيت بشروط معينة. انتهزت جدتي أول فرصة كان الأب فيها غير موجود بالبيت، وطلبت مني أن أحضر لها التلفون. اتصلت تسأل عن بشندي، لكنه لم يكن موجودًا. قالت لي جدتي: «إذا عاود الاتصال وكنت نائمة، فقل له: «اعمل اللي الجدة كوكب قالتلك عليه»». وعندما عاود الاتصال كانت نائمة بالفعل، فنقلت إليه الرسالة، فسمعته يردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

في اليوم التالي، وبعد أن نزل أبي، سمعتها تطلب من أمي وكلها رجاء ألَّا تخذلها أن «عايزة قهوة وسيجارة». قالت لها أمي: «هذا جنون، سيقتلنا زوجي جميعًا إذا

عرف». كررت الرجاء قائلة: «معلش، ريحيني ربنا يريح قلبك، هاشرب وش الفنجان ونَفَسين بس، ما تخليش نِفسي في حاجة». لا أعرف ما الذي رأته أمي جعلها توافق وهي مليئة بالحزن.

لم يعد أبي يترك سجائره في البيت، اشتريت لها علبة بلمونت، ودخلت عليها أمي بالقهوة. التزمت جدتي بوعدها، وش القهوة ونَفَسين، ثم استرخت في جلستها، وأسندت ظهرها إلى رأس السرير وعلى وجهها ابتسامة تعصف بقلبي كلما تذكَّرتها.

سحبت الجدة الراديو وتنقلت بين المحطات حتى توقفت عند أغنية، وطلبت مني أن «تعالى اقعد جنبي». عند مقطع في الأغنية رأيت وسمعت جدتي تغني لأول مرَّة طوال حياتي معها. كانت تغني وتهز رأسها دون أن تفقد ابتسامتها، وتردد مع المطرب:

يا ليل ابعت سلامي للناس الطيبة

فكرهم بالمحبة وبأيام الصبا

كانت أمي تُهوِّي الغرفة، وتشعل البخور في كل مكان خوفًا من أبي.

ليلًا استيقظنا على صوتها وهي تنادي على كوثر، كررت النداء بشكل أربكنا جميعًا. كانت تنادي على شقيقتها التي لم أرها إلا في الصور. رحلت كوثر قبل

أن تتم السادسة عشرة، وكان نادرًا ما تأتي سيرتها. دخلنا عليها، رأيت أبي يوقظها، فتحت عينيها ولم تكن في كامل وعيها، ثم خلدت إلى النوم مجددًا.

خرجنا، فجلس أبي على أقرب كرسي لغرفة الجدة وقد اصفر لون وجهه. طلب من أمي أن تحضر له سجائره، وطلب مني أن أعود إلى غرفتي.

نمت، واستيقظت في اليوم التالي على الفراق.

لم ينافس حزني عليها سوى حزني على أبي. كان متماسكًا، لم يبكِ، لكنه لم يكن ينطق. كانت أمي خوفًا عليه ترجوه أن يفضفض ويحزن ويتكلم، لكنه استسلم للصمت والسجائر.

بعد أيام كان بشندي حارس مدفن العائلة يزورنا في المنزل وفي يده لفافة، فتحها فوجدنا بداخلها اللوحة الرخامية التي سيتم وضعها على شاهد قبر الجدة. كانت قد أوصته أن يجهزها عندما تُطلب منه، ويحفر آية قرآنية واسمها وتاريخ ميلادها، ويترك تاريخ الوفاة حتى اللحظة الأخيرة.

كان بشندي يطلب من الأب مراجعة اللوحة قبل تثبيتها.

تأملها الأب وقال: «لكن أمي ليست مواليد ١٩٢٦ هي مواليد ١٩٢٥».

قال الرجل إن الجدة هي التي أملته البيانات. غضب

أبي بشدة، واعتبر الرجل مستهترًا. قال بشندي: «طيب اتأكد». قال الأب: «مستحيل أغلط في تاريخ ميلاد أمي»، ودخل يفتش على أوراق الجدة بعصبية وهو يسب الرجل ووقاحته. كنا نساعده بتفتيش ضلفة الكومودينو الذي كانت تحتفظ فيه الجدة بأوراقها. عثرت أمي على بطاقة الجدة الشخصية وقدَّمتها إلى الأب الذي كان يقف في منتصف الغرفة متوترًا، تفحصها فارتبك.

وضع أبي البطاقة في جيبه واختل توازنه قليلًا. أمسكته أمي من ذراعه، قال: «بشندي صح». جلس على حافة الفراش يكررها في أسى، كان نحييه في البداية صامتًا، وما إن وضعت ابتسام يدها فوق ظهره حتى انفجر وبدأ يبكي أمه بحرقة.

* * *

قلت لصافية: «سيبك مني أنا، الضيوف أكيد جاعوا».

قالت: «حالًا».

لا أعرف من أين تأتي كل هذه الغواية التي تحيط بصافية وهي تقف في المطبخ؟ قلت لنفسي: هي تطبخ كل شيء بالحب، لا تُلقي عنصرًا في إناء قبل أن تستمتع باستنشاق رائحته، من فروع الروزماري إلى فصوص الثوم، هي تتعبَّد داخل هذا المكان. كل النساء ينظفن مطابخهن بعد الانتهاء من الطبخ، صافية هي أول واحدة

أراها تنظف مطبخها جيدًا قبل أن تبدأ الطبخ. أراقب بإعجاب متعة شراء أدوات المطبخ عندها، تفتش دائمًا عن اختراعات مريحة، وتفتح النِّفس. تتفنن في اختيار الأطباق الملونة، والأكواب التي يليق حجم كل نوع منها بنوع مشروب بعينه: أكواب العصير الضخمة المضلعة، واستكانات الشاي المزركشة، وأكواب النسكافيه الطويلة الشفافة ذات الأذن الكبيرة.

صافية أفضل من رأيته يُقدِّم تطبيقًا لنظرية «الطبخ للآخرين هدية». تتفنن دائمًا في اختيار هديتها وطريقة تقديمها. تعرف أن أثرًا منها سيستقر في معدة شخص ما، فتحاول أن يكون الأمر للذكرى الخالدة.

تراعي حتى الآثار الجانبية للطعام. تذكِّرني دائمًا أنهم قالوا قديمًا: «لا تقل رأيك في طعام حتى تتخلص منه». تعمل صافية حساب أن يترك الطعام عكننة من أي نوع: حموضة، إمساك، غازات، انتفاخ، عسر هضم، فتضبط مقدار كل شيء. ولا تضع ملحًا في الطعام، تقول دائمًا الملح مسألة شخصية، وتتفنن في اختيار الملّاحات التي تضعها على السفرة.

لكن الغواية تظل قائمة. اكتشفت معها أن هناك مكانين يمكن أن يعبر الواحد فيهما عن مشاعره بحرية تامة: المطبخ، والفراش. لحظة سعيدة تلك التي ننام فيها إلى

جوار بعضنا منهكين، بعدما احتضن الفراش ألعاب الغرام، تلفنا ملاءة واحدة، ونفكر معًا في قائمة طعام العشاء. وهناك لحظة أحلى تزورنا كل فترة عندما يصبح المطبخ نفسه هو ملعب الغرام.

تركت لي صافية حرية اختيار قطع اللانجيري التي تُحرِّك كل شيء، وكانت القطعة الأحلى يوم دخلتْ غرفة النوم عارية من كل شيء إلا مريلة المطبخ.

يقولون «الطبخ فن». سرق الطبخ من كل فن شيئًا: سرق من الموسيقى التناغم الذي يصهر عناصر مختلفة في نغمة واحدة بطولة الجمال فيها جماعية، ومن الرسم بهجة الألوان، ومن السينما اقتسام خيالك مع الآخرين، ومن الكتابة الواقعية السحرية، ومن كرة القدم الإثارة، ومن الشعر التكثيف، ومن الديكور مائدة تُشعرك أناقتها بأُلفة تُحرِّر المشاعر، ومن النحت الصبر، ومن العطور مهارة التسلل إلى الوجدان، ومن المسرح طريقة استدراج الجمهور للتصفيق.

صافية لصة ماهرة، تؤسفني فقط الفترات التي تلجأ فيها لاتباع ريجيم يقتنص منها بعض الكيلوجرامات؛ أدفع فيها كل ما أمتلكه لاستعادتها. أقول لها: «أحببتك ممتلئة». ثم أُواسي نفسي بأنه «لو عاش العود، اللحم يعود».

كنا نفتش عن شقة للزواج، زرنا عمارات كثيرة، لكننا

لم نجد شيئًا يلمس القلب. سألتني صافية عما نفتش بالضبط؟ فقلت لها: «بيت فيه فكرة». هاتفتني في صباح أحد الأيام قائلة إنها عثرت على مكان سيُعجبنا. سحبتني صافية من باب الشقة إلى المطبخ، كانت هناك شرفة صغيرة تُطل على الحديقة التي تحيط بالعمارة كلها، كانت جديدة بالنسبة لي فكرة شرفة في المطبخ. قالت صافية: «إن فنجان القهوة الصباحي هنا سيجعلك تغفر لي أي تقصير، وربما تغفر للعالم كله». قلت لها: «هذا بالنسبة للصباح، ماذا عن المساء؟». قالت: «سأشتري لك شيشة».

قالت: «لا أريد فرحًا، أريد على طريقة كتب الأساطير أن نُقيم الأفراح ثلاثين ليلة؛ سنضع نفقات الفرح «على جنب»، ثم نُجهِّز قائمة المدعوين، ونُقسِّمهم إلى مجموعات صغيرة، وعلى مدى شهر سندعو كل مجموعة إلى البيت للعشاء والاحتفال بزواجنا».

قلت لها: «سيكون الأمر مرهقًا».

قالت: «أنا لا أُفكر في الزواج مرَّة أخرى».

كانت كل ليلة فرح، وكل واحدة تختلف عن الأخرى، فرضت كل مجموعة طريقتها في الاحتفال. ثلاثون ليلة انتهت بالكثير من أموال النقطة، وغرفة مليئة بالهدايا وقطع الأثاث، وبهجة كانت تسقي الحب كل يوم ماء الحياة.

يوم عقد القران قالت صافية: «سنخرج بأهالينا من المسجد إلى «شمباشي الكبابجي» صديقك». أعطيت صديقي فكرة حتى يُجهِّز مكانًا لعدد غير قليل. وصلنا، فوجدناه في انتظارنا بفرقة «زفة». وما إن جلسنا على مقاعدنا في صالة الطعام حتى انطلقت الزغاريد من عاملات المحل وهن يدخلن علينا بتورتة ضخمة.

قررنا أن يكون شهر العسل بعد شهر الأفراح. سافرنا إلى غرفة تُطل على جبال العين السخنة، ولم نخرج منها لمدة خمسة أيام؛ نأكل ما يرسلونه إلينا من القائمة، نُدخِّن ونغني ونشاهد الأفلام ونحكي أسرارًا، نضحك ونبكي ونصحو وننام بلا مواعيد، حتى ضاع الوقت وفقدنا القدرة على الاتصال بالعالم، وبدا واضحًا أن هذه الغرفة تتحرك بمفردها إلى مكان بعيد.

بمرور الوقت كنا نكتشف معًا ما يجمعنا، كل ما يسبق المتعة هو المتعة بالنسبة لنا، إثارة الاستعداد للسفر، والطعام، واستقبال الضيوف. نناقش تترات الأفلام، ولا نشاهد واحدًا فاتتنا مقدمته. نتسابق في معرفة الأغنية التي تدور مقدمتها الموسيقية. نتهادى بالقُبل عندما نلتقي مصادفة في طرقة البيت، ثم نودِّع بعضنا على أمل لقاء تتأجج ناره بالوقت. نتسلل معًا إلى محلات العطارة والبُن والأدوات المكتبية والمخابز والبخور. نتلكأ، ونُضيِّع

الوقت. نستنشق المحبة النائمة بين أرفف البضاعة. نكتشف معًا المطاعم المنزوية التي تُقدِّم ما يلمس القلب، ونحتفظ بعناوينها كأسرار، نهادي بها من نثق أنه سيعرف قيمتها. نُقدِّس النوم، لكننا نتعبَّد بالاستيقاظ قبل السادسة، ونشغل الراديو في انتظار الأغنية التي ستُخبرنا عن حظنا اليوم. نكره البنوك، ونضع ما ندخره في علبة معمول أردني بالعجوة. أحجارنا الكريمة هي الأعشاب، نداوي بها كل شيء؛ من الأرق إلى عسر المزاج، من البابونج والبردقوش إلى المليسة والزهورات والمريمية. نكره كل من يتاجر بنعمة الطعام: برامج ناقدي المطاعم الذين لا يعرفون شيئًا سوى الكلام عن الملح المضبوط ودرجة التسوية الجيدة، ويرفعون الطعام إلى بطونهم وهم يعتقدون أننا سنعرف كل شيء من «إمممم» و«فظيع» و«لم أتذوق مثله». وصفحات فيس بوك التي ترشح مطاعم بائسة يزورها أشخاص يكسبون عيشًا من إبداء دهشتهم لكون «الكفتة بتدوب في بوقك». زرنا مطعمًا بناء على ترشيح إحدى هذه الصفحات، وكانت تجربة للنسيان، نمت ليلتها وحلمت من فرط ارتباك معدتي بكوكب الأرض ينتفخ بقوة ثم يُطلق ضرطة عظيمة اختفى على إثرها في الفضاء.

تمتلئ شرفتنا بكل ما يجعل النسيم الداخل إلى البيت

طيبًا: قصاري العطرشان، ومسك الليل، والياسمين الهندي.

آمنت صافية مثلي أن السعادة تحتاج إلى لصوص، أصبحنا نسرقها في جلسات الأصدقاء والأقارب، اللمة أيًا كان سببها، والحبايب جميعهم حاضرون، رحرحة السير بلا هدف في شوارع وسط البلد في شتوية صباح باكر، هجوم أغنيتنا المفضَّلة من راديو المطبخ، وطيس الاستعادة الجماعية لرائحة الأيام الحلوة، نسرقه من الرضا بكل أنواعه، والصبر، ثم الأمل.

بعد أن أصبحت مديرًا في شركة الأدوية، سافرنا كثيرًا، نختبر البلاد في مطاعمها، من الطنجية في مراكش، إلى اللبلابي في تونس، من شوربة الفريكة في الجزائر، إلى مجدرة الأرز والبرغل في بيروت. كنت دائمًا أستمتع بمراقبتها وهي تحاول استكشاف مكونات كل طبق. تتبدل ملامح صافية بشكل يعمق قلبي في ورطة الغرام مع كل مذاق؛ فتقطيبة جبينها الغاضبة مع المالح أجمل من ابتسامتها الطفولية مع الحريف، والسحر كله عندما تُغلق عينيها وتتنفس بعمق مع المُبهر، والأجمل هذا الحور الخفيف الذي يزورها ساعة استكشاف الحلويات.

تعايرني دائمًا أن صورنا التذكارية خارج مصر كلها في

مطاعم. أقول لها: «بطني واسعة». فتبتسم قبل أن تقول: «إن هذا هو ما يشعرني معك بالأمان».

صافية ليست ملاكًا، يزعجني كثيرًا كسلها، من الصعب توقُّع رد فعلها، غضبها فوضوي، لكن يسهل إرضاؤها.

أُحب فيها أنها لم تُفرط في الكُحل يومًا. تقول دائمًا: «الكحل تابِل النظرة». لكني أكره عدم اهتمامها بنفسها أحيانًا. أقول لها مُحرِّضًا: «إذا نظر إليها سرَّته». تقول بسرعة بديهة محرجة: «إذا نظر إليها سرَّته لأنه يحبها».

هي مسرفة، لكنها تبخل على نفسها. ماهرة في اكتشاف العيوب، لكنها تكره أن ينتقدها أحد. اختزلت فيها نصيبي من نعمة الصداقة على الأرض، لكنني كلما شكوت لها أمرًا، كانت تتفنن في إقناعي بأنني المخطئ. أقول لها: «سأتزوج واحدة غيرك تواسيني ساعة الشكوى بـ«كلمتين حلوين»». تقول: «كيلو الكلام بـ«تراب»».

كانت أدخنة التسبيكة تتصاعد، بطن صافية المنتفخة بها طفل يتنفس الآن أبخرة من النوع الفاخر، سيكبر ويلتهمنا، أو ستكبر، لست مهتمًّا، كل ما يهمني ألَّا يكون الجنين توأمًا مثل توأمنا «روح، وريحان»، تقول عنهما أمهما إنهما تشبهان قطط المطاعم، تتسللان من غرفتهما إلى مائدتنا فور أن نجلس، نطعمهما الفتات الذي يليق بسنهما، ولا تشبعان.

سمعت رنة وصول رسالة على هاتفي، فتحركت باتجاهه، ثم غيَّرت وجهتي إثر نداء آخر.

«عبد الله».

تغيَّرت الطريقة التي ينادي أبي بها اسمي.

كان التدليل يغزوها في الطفولة.

ثم التوتر طوال فترة المراهقة.

والإشفاق شابًّا مغتربًا مكافحًا حتى تزوجت.

والآن بينما أبي يجلس في صالة منزلي وأمامه روح وريحان منهمكتان في الرسم والتلوين، عاد لمناداتي كما كنت طفلًا.

وُلد أبي بداخلي من جديد بعد أن وصلت روح وريحان، وجدت تفسيرًا لجملته القديمة الغامضة: «لما تكبر وتبقى أب هتعرف». تفهَّمت كبيرًا أسرار غضبه، ووجدت لكل مرَّة انفعل عليَّ فيها «بدل السبب» مائة. وقعت في غرام الأستاذية التي كان يمارسها عليَّ صغيرًا، وكانت تصيبني بالضجر. كبيرًا أصبحت أسترجع دروسه في المواقف الصعبة وكانت تنقذني.

فهمت كل ما يمكن أن يجعله يشعر بالخوف على طفله، وسامحت تعبيره عن هذا الخوف بالضرب أحيانًا. يؤلمني أنني لم أعرف وأنا أعيش معه في بيت واحد الطريقة التي يمكنني بها أن أرضيه وأُدلله، يؤلمني

هذا الاكتشاف بعد أن أصبح لديَّ طفلتان أتوقَّع منهما الكثير.

طلب مني أن أُرتِّب عودتهما إلى المدينة، بالقطار أو سيارة مخصوص. قال: «مضى علينا هنا أكثر من شهر».

سألته بوضوح: «وانت وراك إيه هناك يعني؟».

فقال: «عايز أبقى قريب من الطيارة اللي هتروحني».

كانت أمي جالسة تصلِّي على مقربة منه. أنهت صلاتها، ثم بدأت تدعو الله بصوت خافت وهي تشير ناحية الطفلتين.

على السفرة كانت أمي كعادتها بارعة في التقاط أخطاء الطهي التافهة، ملعبها، رائدة مدرسة تحاول لاإراديًّا أن تحافظ على كون «المقامات محفوظة». وكانت صافية أشد براعة في تلقي التوجيهات بابتسامة كريمة، والتأكيد دائمًا على أنه «عندك حق يا طنط».

أجلس وإلى يميني جاذبية أبي وأمي، ومدينة بعيدة تبدو الآن قديمة ومعتقة وتأسر القلب كالحبهان، وإلى يساري جاذبية أبسط من القدرة على الوصف، مُغوية بلا ضوضاء، كالكحل الذي يُظلل نظرة صافية.

كانت رسالة الهاتف «واتس آب» من حمادة، الذي استقر في دبي طبيبًا أعزب يعيش حياته بشكل مستفز. أحسده على حريته وعلى حياته بعيدًا، ويحسدني هو على

استقراري في مصر وأسرتي الصغيرة. ويرى كل واحد فينا النعمة التي في يد الآخر بشكل أوضح منه.

كنت قد أرسلت إلى حمادة بالأمس فيديو وجدته بالصدفة لمطربة خليجية ظهرت في مصر أيام مراهقتنا، اسمها «عتاب»، كانت تغني «جاني الأسمر»، وكنا نشغلها في غرفة حمادة ونظل نرقص ونحن نُقلِّد رقصها الصحراوي حتى نقع في الضحك. قلت لنفسي عندما صادفني الفيديو: سيسعد حمادة، وسيتذكر كل شيء.

بعد انتهاء الطعام فتحت الرسالة، وردًّا على أغنيتي الخليجية رد عليَّ حمادة «ابن الذوات» بواحدة أجنبية، مطربة اسمها «ماري هوبكن». وبينما أستمع إلى أغنيتها رأيتني أنا وحمادة نسير في شوارع المدينة الخالية بعد العصر، نتبادل ركل الكرة في اتجاهنا إلى ملعب النادي، كنت أستمع وأشم رائحة أشجار النادي الضخمة ونحن نقترب منه، بينما «ماري هوبكن» تقول الحقيقة:

Those were the days my friend

We thought they'd never end

اليوم الخامس

(١)

صحوت متعبًا، واستغرقت وقتًا طويلًا لاستحضار همَّة القيام لغسل وجهي. لم أعرف هل هو تعب المعجنة التي خضتها بالأمس، أم أنه تعب المشوار إلى سيريلانكا التي سقطت في النوم قبل أن أصل إليها.

كنت ممتعضًا من الجميع.

رددت الصباح على جدتي بأعلى درجة صوت استطعت أن أصل إليها لأُنهي التمارين باقتضاب.

تركت كيس الساندويتشات بطريقة يسهل اكتشافها بعد انصرافي.

وعندما سألتني أمي عما أُحب أن يكون موجودًا على الغداء اليوم، قدَّمت لها الإجابة التي قد تشعرها بتأنيب الضمير: «أي حاجة».

(٢)

كنت أحاول تجاهل آلامي عندما طرق فرَّاش المدرسة باب الفصل طالبًا مني أن أتوجه إلى مكتب وكيل المدرسة.

حاولت أن أُخمِّن المصيبة الجديدة.

في مكتبه قال: «لك خطاب من الخارج، ويبدو أنه يحتوي على صورة».

قرأت في عينَي الوكيل واقعة ضبطنا بالكوتشينة السكس في حمَّام المدرسة، كان قد عفا عنا، وقرر ألَّا يُخبر أهالينا عندما وعدناه ألَّا يتكرر الأمر. قرأت في عينيه أنه يتكرر، وربما تكون الصورة الموجودة داخل الظرف الأجنبي من العينة نفسها.

كنت مضطرًّا لفتح الظرف أمامه.

كان به صورة مكتوب عليها: «هيام». كان شكل المذيعة اللبنانية بعيدًا تمامًا عما تخيَّلته، وكانت هناك رسالة قصيرة مع الصورة، كتبت فيها بعد التحيات والمحبة أنه بإمكاني أن أعتبر نفسي من هذه اللحظة «صديق البرنامج».

(٢)

لم تظهر سحر اليوم.

ولا أعرف ما الذي يمكن أن تكون قد واجهته بسببي!

من المؤكد أن والدها قد عاقبها، وشكاني إلى أبي حاملًا إليه البلوك نوت الأصفر.

كنت أصعد سلم البيت بصعوبة من فرط الوجع، وكأن رُكبتي مستقرة بين فكي فرس نهر.

دخلت من باب الشقة إلى غرفتي مباشرة وفردت ظهري. وصل أبي متأخرًا، سمعته يسأل إن كنت قد عدت من المدرسة. وبعد قليل طرقت أمي الباب تخبرني أن الغداء جاهز: «عملتلك المسقعة».

قلت لها إنني لست جائعًا و«مليش نِفس». سمعت صوت أبي آتيًا من الخارج يطلب مني أن «تعالى اقعد معانا على السفرة وما تاكلش». لم يكن هناك موضع في جسدي يستطيع أن يتحمَّل عقابًا جديدًا، فخرجت من غرفتي. كانت جدتي تجلس إلى مقعدها تتأملني، سمعتها وهي تميل على أبي هامسة ومنزعجة بشدة: «الواد بيُعرُج يا إبراهيم!».

نظر أبي ناحيتي يتفحصني، ثم انقلب التنمُّر شعورًا بالذنب.

أعاد أبي إلى طبقه ملعقة الأرز التي كان على وشك أن يضعها في فمه. تبادل النظرات مع جدتي وأمي، وفشلت الأخيرة في حبس دموعها.

وقف أبي وطلب مني أن أرتدي حذائي سريعًا.

(٤)

في مستشفى المدينة الذي لا يبعد كثيرًا عن بيتنا انتظرنا دورنا. كنت أجلس أنا وأبي صامتين، كنت أتحاشى النظر ناحيته، وكان يُدخِّن بشراهة ويهز ساقيه لدرجة وتَّرتني.

استغرق الطبيب وقتًا في الكشف على رُكبتي، ثم اطمأن ضميره، لأنها مجرد كدمة لكنها «شديدة شوية». قال أبي: «صدمته سيارة». قال الطبيب راحة ثلاثة أيام مع الدهانات، ورُكبة قطنية سأرتديها أسبوعًا.

راجعه أبي متسائلًا إذا كان هناك ما هو أكثر من ذلك ويحتاج إلى جبيرة أو تدخل جراحي، لكن الطبيب تمسك بما قاله وكرره، فبدأت ملامح وجه أبي تجلس في مكانها.

خرجنا نسير إلى جوار بعضنا بعد ارتداء الضمادة، وأصر على أن أتسنَّد عليه.

بعد دقيقة تكلَّم، سألني: «حلوة بنت الدكتور ملاك اللي بتبعتلها جوابات الحب دي؟».

سحر ملاك؟

قلت لأبي: «يعني».

قال لي: «يجب أن نشكر عم سيد الذي أنقذنا جميعًا من فضيحة لم يكن لها لزوم؛ رآك بالصدفة تُلقي المفكرة لابنة الدكتور؛ وهو رجل شرَّاني «بتاع مشاكل»، فجرى والتقطها قبلها، ولم يُعدها لك حتى لا تُعيد الخطأ، ثم أحضرها لي، كان ممكنًا أن تصبح مصيبة، ستعرف المدينة كلها الخبر، وستظل إلى الأبد محسوبًا على «العيال الصِّيع»».

عم سيد؟!

غبي!

أعرف أنه فعلها بحُسن نية، لكنني صرت أكرهه منذ هذه اللحظة.

قال أبي: «أجيبلك علبة سجاير؟».

نظرت إليه، وجدته يقولها ساخرًا مبتسمًا، فابتسمت، ولم يكن ذلك في نيتي قَطُّ.

لم يكن ينظر ناحيتي عندما قال: «إنت راجل، وجدع، وأنا باحبك وباخاف عليك».

قلت له: «وأنا لم أغش».

نظر إليَّ وكان باديًا على وجهه أنه يصدقني، لكن سرعان ما عدنا إلى الصمت من جديد.

(٥)

كنا نسير في الشارع المؤدي إلى البيت.

وهو أيضًا الشارع المؤدي إلى النادي.

كان الجمهور الذي سيحضر الحفل يتحرك في مجموعات، قادمًا في الاتجاه المعاكس.

عندما اقتربنا من مدخل العمارة كان خالي يقف بعيدًا.

وكانت أمي وجدتي تُطلان من الشرفة.

تأمل أبي المشهد، ثم تبادل مع جدتي نظرات هما فقط اللذان يعرفان ترجمتها. هزَّت جدتي رأسها وهي تشير ناحية خالي.

وقف أبي مترددًا، نظر إلى أعلى مرَّة أخرى، كانت أمي صامتة ويعلو ملامحها أسى واضح.

ربت الأب فوق كتفي، ثم دفعني برفق إلى الأمام: «روح لخالك».

لم يتخلَّ عني الخال حتى اللحظة الأخيرة كما وعدني.

أخرج من جيبه التذاكر ملوِّحًا بها.

كنت أتقدم ناحيته وأنا «أعرُج».

تقدَّم ناحيتي وهو يُقلِّد مشيتي ساخرًا، وعلى وجهه ابتسامة.

وكانت ابتسامته هي أجمل ما رأت عيناي.

«فسدت شهيتي أنا الذي كنت أرى في الطعام ما بعد الطعام. لا يوجد ما هو أشهى من طعام استقر لفترة داخل فخارة في النار، تمامًا كالتجارب التي تسوي جاذبية الواحد على مهل. الفاكهة التي أعود بها من السوق لا ضامن لها، وهي غدّارة مثل اختيارات الواحد العاطفية. الخبز يقول إنه لا بد من شريك. يكبر الواحد فيهرب من أهله، مثلما يسقط اللحم الناضج عن عظم مفصل الفخذ الذي لولاه ما تشكّل وتماسك. الطريقة التي يظل الفطاطري يفرد بها عجينته ويلمها هي نفسها الطريقة التي يتعامل بها الواحد مع هلاوسه وإحباطاته في الساعة التي تسبق النوم. الصلصة شخص لا يعيش لنفسه، لكن للآخرين. حشو البيتزا فقط هو الذي يصنع الفروق، لكن جرّب أن تحبس بشرًا مختلفين في خوف مشترك أو في غناء جماعي، سيسقط الحشو ساعتها، وستكتشف أن العجينة واحدة».

في هذه الرواية يكتشف عمر طاهر متعة استخدام الطعام والرائحة لكتابة قصة حياة رجل عادي. المراهقة الحب الغربة الوحدة الزواج الأصدقاء، النجاح والفشل... هناك دائمًا طعم ورائحة كما يحكي بطل الرواية.

